كشف اللثام
عن
تراجم الأربعة الأعلام

الإمام أبو حنيفة — الإمام مالك
الإمام الشافعي — الإمام أحمد

جمع وترتيب
عمر المغراوي

قدم له
فضيلة الشيخ عبد الله بن المدني
وفضيلة الأستاذ محمد بن إدريس

الـكـتـاب : كشف اللثام عن تراجم الأربعة الأعلام
الإمام أبو حنيفة – الإمام مالك – الإمام الشافعي – الإمام أحمد
المـــؤلـف : عمر المغراوي
الـــنـاشـر : المؤلـف
الـطـبـعـة : الأولى 1430هـ - 2009م
الحـقـــوق : © جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
المطـبـعـة : مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء
الإيـــداع : القانوني رقم 2009 MO 1047

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى من ذكّرتْنا سيرتُه بعلمائنا الأجلاء

وربانا على حبهم وتوقيرهم ونشر فضائلهم

إلى من أنار لنا الطريق، وأنقذنا من براثن الجهل

إلى من وجدْنا فيه سعة الصدر ولين الجانب

إلى من علّمنا بفعله قبل قوله

إلى من وقف حياته لخدمة القرآن وأهله

إلى شيخي الغالي الجليل، وأستاذي الفاضل النبيل

فضيلة الشيخ عبد الله بن المدني حفظه الله ورعاه.

إلى اللّذيْنِ ربياني صغيرا، وتعبا من أجلي كثيرا

إلى والديَّ الكريمين اعترافا بفضلهما عليَّ

أهدي هذا العمل المتواضع

سائلا الله تعالى أن يجزيهم عني خير الجزاء.

عمر المغراوي

تقريظ لفضيلة الشيخ عبد الله بن المدني حفظه الله

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، له المحامد كلها، وله الثناء الحسن، علمنا ما لم نكن نعلم، وكان فضل الله علينا عظيما.

والصلاة والسلام على أكمل معلم للبشرية، وأفضل منقذ للبرية، من أدبه ربه فأحسن تأديبه، وعلمه فأحسن تعليمه، سيدنا محمد المختار، من صلى عليه الله وملائكته والمؤمنون آناء الليل والنهار، وعلى آله الأئمة الأطهار، وصحابته العلماء الأخيار، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم القرار.

أما بعد :

فهذه ثمرة من ثمار دار القرآن أخرى، وباكورة من بواكرها تترى، تضاف إلى تلكم السوابق الجُلّى، فشجرتها لا زالت تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، باسقة أغصانها، وارفة ظلالها، يخطها ويجنيها أخونا وحبيبنا «السيد عمر» ببنانه، ويهديها باقة من الزهور والورود إلى طلبة العلم وعشاقه، والمعانقين لعرائسه وأبكاره.

إنه كتابه الذي ترجم به للأئمة الأعلام، الذين هم القدوة في أمة سيد الأنام، فقد نظم شمائلهم في عبارة سهلة لطيفة، وسمط جلائلهم في كلمات موجزة جميلة.

وأئمتنا الكرام وإن كانت تراجمهم في الكتب مسطورة، ومناقبهم عند أهل العلم والفضل معلومة مشهورة، إلا أن الجديد في رسالة أخينا «السيد

عمر» أنه ترجم للأئمة الأربعة في سياق متلاحم، وساق الكلام عليهم في نسق متناغم، وصاغهم في حلقة مفرغة لا يدرى طرفاها، ولا يعرف مبدؤها من منتهاها، فجاءت رسالته لأطراف الموضوع شاملة، ولما نقل عن الأئمة الأعلام من مناقب جامعة.

هذا والحديث عن الأئمة حلو جميل لا يمل سماعه، ولا يسأم ترداده وتكراره.

فهو كما قال القائل :

كرر علي حديثهم يا حادي فحديثهم يجلو الفؤاد الصادي

***

أتاك حديث لا يمل سماعهُ شهي إلينا نشره ونظامهُ
إذا ذكرته النفس زال عناؤها وزال عن القلب المُعَنَّى ظلامهُ

فبذكرهم تتنزل الرحمات، وبحبهم يتقرب إلى رب الأرض والسماوات، فحقهم علينا عظيم، وواجبهم نحونا جسيم، فقد أسدوا إلينا من المعروف ما لا نستطيع مكافأتهم، وأجزلوا لنا من الفضل مالا طاقة لنا أن نجازيهم.

فجزاهم الله عنا وعن الإسلام خير الجزاء، ونفعنا بما تركوا لنا من الخير العظيم، والنفع العميم، ونفع بهذه الرسالة قارئها والعامل بها، إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله على حبيبنا وقرة أعيننا سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

وكتبه العبد الفقير إلى مولاه الغني : **عبد الله بن المدني**
خادم دار القرآن الكريم ببني ملال
غرة جمادى الأولى 1427هـ.

تقريظ لفضيلة الأستاذ محمد بن إدريس حفظه الله

الحمد لله الذي شرع الدين لعباده يصلح به أحوالهم ويهديهم مآلهم، فبعث رسلا مبشرين ومنذرين، فبينوا أصول الاعتقاد، ودعوا إلى سبيل الرشاد، وحذروا من خسارة المعاد.

وصلى الله وبارك على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد الأمين، عبد الله ورسوله وصفيه وخليله، الذي بلغ الرسالة، ونصح الأمة وكشف الغمة، ونحن إن شاء الله على ذلك من الشاهدين، وعلى آله وأصحابه نجوم الهدى، وذروة التقى، الذين اصطفاهم الله صحبة لرسوله، وحملة لهذا الدين من بعده، رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

أما بعد :

لقد اقتضت حكمة الله أن يتولى سبحانه بنفسه حفظ هذا الدين، حيث قال جل من قائل : ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحفظون**﴾ [الحجر الآية : 9]. فما استطاعت أيادي الأعادي تحريف حرف واحد من كتابه، ولا إغلاق باب واحد من أبوابه، ولا قطع سبب واحد من أسبابه، وذلك بأن قيض الله له طائفة بعد طائفة، وخلفا بعد سلف، من الذين ورثوا أنوار النبوة، فحملوا على عواتقهم تبليغ الرسالة في أعلى همة وأسمى قمة، رفع الله شأنهم فقال سبحانه : ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم**

درجات﴾ [المجادلة : 11]. وزكى سبيلهم فقال : ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** [فاطر الآية : 28].

وهكذا ما زلنا بحكمة الله ورحمته ننهل من حياض العلم بواسطة رجاله، ونتفيأ ظلال الحق في أوج آصاله، مهما بعدت القرون، وتنوعت ألوان المعارف والفنون، فلم يزل هذا الدين غضا طريا، وبكرا جنيا، يدل في كل حين على أنه الحق المبين، مهما تقلبنا بين قواطع الأدلة وسواطع البراهين.

كان كل هذا وأكبر منه بكبير داعيا دعوة وجوب إلى معرفة هؤلاء الرجال، والتنقيب عنهم في بطون الأسفار، ومطالعة أحوالهم خاصها وعامها، ليقتدي المقتدي بهم، ويتعلم المتعلم من علمهم، فشمر رجال للبحث عن رجال، وتلك لعمري أنبل الخصال، فكتب الكثير عن الأئمة المعتبرين من أساطين حملة هذا الدين، فكشفوا عن أخلاقهم وبحثوا في أحوالهم وأرزاقهم فضلا عن كتبهم وأعمالهم وشيوخهم وتلامذتهم، إلا أنه من المؤسف ألا يحتفل بهذه السير لهؤلاء النبلاء في كتب الأدب العربي ذلك الاحتفال الذي يشد قلوب الشباب وعقولهم، بدل أن تشد بسير الرياضيين والمغنين والراقصين، وغير ذلك مما تموج به القنوات موجا، مما خرب البيوت وشوه تربية الأجيال، حتى جهل الناس دينهم أو كادوا يجهلون.

ولو أن هؤلاء الرجال من السلف الصالح الذين حفلت بهم زبر الأولين واللاحقين وجدوا من يوظف سيرهم توظيفا إعلاميا مشرقا لكان كل إمام منهم مدرسة لا يستغني عنها طالب علم، ولا ناشئ في تربية.

ونظرا لضيق المقام، وتوافر أسباب الكلام، فسأكتفي بإشارة سريعة في كلمة متواضعة عن : «**كشف اللثام عن تراجم الأربعة الأعلام**» فأقول وبالله

التوفيق : لا أزكي هذا البحث فأقول : إنه جديد، ولا أهضمه حقه فأقول: إنه تقليد، ولكن وبكل صدق هو أحرى بأن يقرأه الشباب من أبنائنا، وذلك للميزات الآتية، وإن كانت ميزاته أكثر مما أذكر

أولا : اختصار الطريق على الطالب في زمن يعج بالأشغال، وينوء بالأثقال، حتى صار الطالب لا يجد من الوقت ما يؤهله للنظر في الكتب الطوال، فكشف اللثام بمثابة منارة تجمعت فيها أضواء مختلفة الألوان، متقاربة الأنوار، بحيث يستطيع القارئ أن يقرأه في حصة أو حصتين.

ثانيا : سهولة لغته، فعباراته تنساب في نسق بديع، وحسن صنيع، في خلو من كل متنافر غريب، أو تركيب ركيك بعيد، وهذا مما يناسب ثقافة عصرنا حيث بعد الشباب عن الألفاظ الفخمة، والعبارات المعقدة، التي لا يواكبها إلا خاصة الخاصة.

ثالثا : اقتصاره على الأئمة الأربعة المعروفين عند العامة. والناظر في مقدمة البحث يلاحظ أول ما يلاحظ أن الأخ الباحث خال من كل تعصب لأي واحد من هؤلاء الأربعة، أو تعصب لهم جميعا دون غيرهم، وإنما أراد تقريب الأشهر الذي لا يغني جهله عن معرفته، وإلا فكل حملة هذا الدين أئمة.

رابعا : الترتيب الزماني الذي اختاره الباحث، وإن كان الأخ الكريم أشار في مقدمة بحثه إلى أنه اختار هذا الترتيب تبعا لتواريخهم، فإني أرجو ألا أكون قد أخطأت الطريق في نظرتي إلى هذا الترتيب على أنه يحملنا على النظر في تاريخ الفكر الاجتهادي في فقه التشريع، لأن العلاقة التلازمية تفرض نفسها بين كل فكر وفكر، وزمان وزمان ومصر ومصر، فالترابط موجود، ومن خلال هذا الترابط يستشف كثير من أسباب الاختلاف في فروع الفقه الإسلامي لننتهي أخيرا إلى الرحمة الواسعة في هذا الدين، وما شق أمر الخلاف على أبنائنا اليوم إلا بسبب إغلاق باب

الاجتهاد في لغة الساسة أو الفقهاء الرسميين، وإلا فباب الاجتهاد كان ولا يزال مفتوحا ما دام القرآن يقول : ﴿**أفلا يتدبرون**﴾. ﴿**أفلا تعقلون**﴾ ﴿**إن في ذلك لآية**﴾. ﴿**فاعتبروا يا أولي الأبصار**﴾...إلى آخره.

خامسا : إن كشف اللثام ليس قصرا على الصغار من طلاب العلم، ولكن يقرؤه الكبار، وإن كانوا قد علموا القليل أو الكثير عن هؤلاء الأئمة، لأن آفات العلم النسيان، وبحث ككشف اللثام، يذكر بالمنسيات، ويوقظ ما تراكمت عليه الغفلات.

وأخيرا أعتذر لأخينا الأستاذ عمر المغراوي عن الاسترسال في ذكر المزايا حتى لا أجعل من البحث بحثا، ولا من المقال مقالا، فشكر الله صنيعه، وتولى الله جزاءه، ونعم أجر العاملين، والحمد لله رب العالمين.

الأستاذ محمد بن إدريس بلبصير
22 صفر 1428 هـ موافق 12 مارس 2007م
بني ملال.

مقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونومن به ونتوكل عليه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، أنزل الكتب، وأرسل الرسل، لإقامة دين الإسلام، وللحجة على الأنام، رفع مقام العلماء الربانيين، وجعلهم حماة لهذا الدين.

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمدا عبده ورسوله، وأمينه على وحيه وخليله، سيد المرسلين، وخاتم النبيئين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، وحجة الله على الناس أجمعين ، ورحمته للعالمين، هدى به بعد الضلالة، وعلم به بعد الجهالة، ورفع به بعد الخمالة، وكثر به بعد القلة، وأعز به بعد الذلة، وأغنى به بعد العيلة، وجمع به بعد الفرقة، وألف به بين أمم متفرقة، وقلوب مختلفة، وأهواء متشتتة، وفتح برسالته أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا

القائل صلوات الله وسلامه عليه :

«**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**» رواه البيهقي[1].

(1) السنن الكبرى، للبيهقي، ج : 10 ص : 350 (كتاب الشهادات). ومشكاة المصابيح، للخطيب التبريزي، ج : 1 رقم الحديث : 248، انظر طرقه في (مفتاح دار السعادة) لابن القيم جـ : 1، ص : 201.

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، الذي نوه بالعلم والعلماء، وجعلهم ورثة الأنبياء، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الذين كانوا علماء عاملين، ودعاة مخلصين، وجهابذة متقنين، وبررة صادقين، وعلى كل من دعا بدعوته، واقتدى بسنته، واهتدى بهديه، وجاهد بجهاده إلى يوم الدين.

أما بعد :

فإن الاهتمام بدراسة سير أئمة الإسلام، يحتوي على فوائد كثيرة، ومنافع عديدة.

ومن هذه الفوائد : الاطلاع على علمهم وآدابهم واجتهاداتهم.

ومنها : الوقوف على ما بذلوه من جهود عظيمة في خدمة الشريعة الإسلامية.

ومنها : أنها تشحذ الأذهان، وتحرك الهمم للطلب والتحصيل.

ومنها : أن الرحمات تنزل عند ذكرهم، كما قال الإمام الثوري رحمه الله : عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة[2].

ومنها : أنها تحدث أثرا طيبا في قلب من وقف عليها

حتى قال الإمام أبو حنيفة رحمه الله : الحكايات عن العلماء ومحاسنهم أحب إلي من كثير من الفقه، لأنها آداب القوم وأخلاقهم[3].

وقال بعض المشايخ : الحكايات جند من جنود الله يثبت بها قلوب أوليائه، قال: وشاهده قوله تعالى : ﴿**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك**﴾ [هود الآية : 119][4].

---

(2) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (397/2) وترتيب المدارك، للقاضي عياض (14/1).
(3) ترتيب المدارك، للقاضي عياض (14/1) وجامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (152/1).
(4) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 14.

وقال عبد الفتاح أبو غدة :

إن خير وسيلة لإشعال العزائم، وإثارة الروح الوثابة، وقدح المواهب، وإذكاء الهمم ، وتقويم الأخلاق بصمت وهدوء ودون أمر أو نهي، والتسامي إلى معالي الأمور، والترفع عن سفسافها، والائتساء بالأسلاف الأجلاء : هو قراءة سير نبغاء العلماء الصلحاء، والوقوف على أخبار الرجال العظماء، والتملي من اجتلاء مناقب الصالحين الربانيين، والاقتراب من العلماء النبهاء العاملين المجددين.

فذلك خير مِهماز لرفع الهمم، وشد العزائم، وسمو المقاصد، وإنارة القلوب، وإخلاص النيات، وتفجير النبوغ والطاقات المدفونة، والصبر على اجتياز العقبات والصعاب، واحتلال ذرى المجد الرفيع، وكسب الذكر الحسن، واغتنام الباقيات الصالحات[5].

ما أجمل الحديث عن هؤلاء الأئمة الكرام، والسادة الأعلام.

إن الحديث عنهم حلو جميل، تنتعش به النفوس، وتطرب له القلوب، وتشنف به الأسماع.

وما ألذ الاستمتاع بسير مَن رفع الله مقامهم، وجعلهم قادة في الخير، وأقامهم في كل زمان ومكان، سُرُجا في البلاد، ومنارات للعباد، يقتدون بهم وينظرون إلى هديهم وأخلاقهم فيتأثرون بهم ويقتفون أثرهم.

إن هؤلاء الفضلاء جديرون بالتعريف بهم، والتذكير بحقوقهم، ونشر فضائلهم وبث علومهم، والوقوف مع سِيَرهم العطرة.

فالأمة مطالبة بمعرفة سيرهم، وأداء حقوقهم، ومحبتهم وتعظيمهم وتوقيرهم وإجلالهم، وإنزالهم منازلهم وإظهار مراتبهم، والمنافحة عن

(5) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص : 18.

أعراضهم، والتأدب معهم في المجالسة والمخاطبة، وعدم الاستخفاف بأقوالهم واجتهاداتهم أحياء كانوا أم أمواتا.

قال الإمام القرطبي رحمه الله : وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفا لهم، إذ هم ورثة الأنبياء[6].

ومن التأدب معهم عدم مناداتهم بأسمائهم المجردة، قال العلماء : من نادى العالم باسمه فقد أساء الأدب[7].

وإنما ينادى بما هو أهل له من التبجيل والتعظيم والاحترام.

قال طاووس رحمه الله : من السنة أن يوقر العالم[8].

ومكث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما سنة وفي رواية سنتين، وهو يريد أن يسأل عمر رضي الله عنه عن المرأتين المتظاهرتين، ما يمنعه من ذلك إلا هيبته[9].

وورد أن زيد بن ثابت رضي الله عنه، صلى على جنازة، ثم قربت له بغلة ليركبها، فجاء عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فأخذ بركابه، فقال له زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، وزاد بعضهم في هذا الحديث :

أن زيد بن ثابت كافأ ابن عباس على أخذه بركابه أن قبل يده، وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

لكن قال ابن عبد البر : وهذه الزيادة من أهل العلم من ينكرها[10].

---

(6) الجامع لأحكام القرآن، سورة الحجرات الآية : 2.
(7) الدر المختار، من خطب الشيخ محمد المختار، ص : 51.
(8) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر ج : 1 ص : 155.
(9) انظر جامع بيان العلم و فضله، ج : 135/1.
(10) جامع بيان العلم وفضله، ج : 154/1.

قال علي رضي الله عنه : إن من حق العالـم عليك أن تسلم على القوم عامة، وتخصه بالتحية، وأن تجلس أمامه، ولا تشير عنده بيدك، ولا تغمزن بعينك، ولا تكثر عليه السؤال، ولا تعينه في الجواب، ولا تلح عليه إذا كسل، ولا تراجعه إذا امتنع، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض، ولا تفشي له سرا، ولا تغتابن عنده أحدا، ولا تطلبن عثرته، وإن زل قبلت معذرته، ولا تقولن له :

سمعت فلانا يقول : كذا ولا أن فلانا يقول : خلافك، ولا تصفن عنده عالما، ولا تعرض من طول صحبته، ولا ترفع نفسك عن خدمته، وإذا عرضت له حاجة سبقت القوم إليها فإنـما هو بـمنزلة النخلة تنتظر متى يسقط عليك منها شيء[11].

وعن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال : إن لـم يكـن الفقهاء العاملون أولياء الله فما لله ولـي[12].

وقال الربيع صاحب الشافعي وخادمه : والله ما اجترأت أن أشرب الـماء والشافعـي ينظر إلـي هيبة له[13].

وقال أبو حنيفة رحمه الله عن شيخه حماد : ما مددت رجلي نحو دار أستاذي حماد إجلالا له، وكـان بين داري وداره سبع سكـك[14].

وقال الشافعي : كنت أقلب الصفحة بين يدي مالك صفحا رقيقا هيبة له، لئلا يسمع ورقها[15].

---

(11) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، باب في (آداب المعلم والمتعلم).
(12) سير أعلام النبلاء، للذهبي ج : 8 (ترجمة الإمام الشافعي)، ومناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 238.
(13) تهذيب الأسماء واللغات، للنووي، ج : 1 ص : 65، ومناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 262.
(14) الطبقات السنية، في تراجم الحنفية، ج : 1 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).
(15) صلاح الأمة، في علو الهمة، ج : 665/5.

وفي الحديث : «**ليس من أمتي من لم يجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه**»[16].

ورب العالمين يقول : ﴿**قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾ [الزمر الآية 10].

فينبغي أن نذكرهم بالذكر الجميل، والثناء الحسن، وأن نغض الطرف عن هفواتهم، واصطياد سقطاتهم، وأن نحذر من التنقص من قدرهم والحط من مكانتهم، والتطاول عليهم، وإهدار محاسنهم، والجرأة على مقامهم، وإساءة الظن بهم.

لكن ما يثير الحسرة والتأسف أن هذه الظاهرة أعني ظاهرة التطاول على العلماء والتجرؤ على مقامهم والتنقيص من قدرهم، قد تفشت وانتشرت بشكل كبير بين كثير من المسلمين حتى بين الخاصة منهم ولله الأمر من قبل ومن بعد.

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

وقال آخر

أقِلّوا عليهم لا أبا لأبيكمُ ... من اللوم أو سدوا المكان الذي

وقال آخر :

وإذا أتتك مذمّتي من ناقص ... فهي الشهادة لي بأنّيَ كامل

وقال آخر :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسدا وبغيا إنه لدميم

وما دروا أنهم بهذا ينشرون فضائلهم وهم لا يشعرون، ظنوا أنهم بذمهم وتنقصهم لهم يطوون ذكرهم الجميل، وخبرهم المجيد، فجاءت النتائج عكْسية على غير ما توقعوا.

(16) رواه الإمام أحمد بإسناد حسن.

كما قال أبو تمام :

وإذا أراد الـلـه نشـر فضـيـلـة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرف العود

وهذا من الوقاحة والجهل بـمكـانة هؤلاء العلماء.

وكما قال ابن الجوزي رحمه الله : ومن تلبيسه على الزهاد احتقارهم العلماء وذمهم إياهم، فهم يقولون : المقصود العمل، ولا يفهمون أن العلم نـور الـقـلـب، ولـو عـرفـوا مـرتـبـة الـعـلـمـاء فـي حـفـظ الـشـريـعـة، وأنـهـا مـرتـبـة الأنبياء، لعدوا أنفسهم كـالبكم عند الفصحاء، والعمي عند البصراء، والعلماء أدلة الطريق، والخلق وراءهم[17].

وقال محمد بن صالح العثيمين رحمه الله : «إن على طلبة العلم احترام العلماء وتقديرهم، وأن تتسع صدورهم لما يحصل من اختلاف بين العلماء وغيرهم، وأن يقابلوا هذا بالاعتذار عمن سلك سبيلا خطأ في اعتقادهم، وهذه نقطة مهمة جدا، لأن بعض الناس يتتبع أخطاء الآخرين، ليتخذ منها ما ليس لائقا في حقهم، ويشوش على الناس سمعتهم، وهذا من أكبر الأخطاء، وإذا كان اغتياب العامي من الناس من كبائر الذنوب فإن اغتياب العالم أكبر وأكبر، لأن اغتياب العالم لا يقتصر ضرره على العالم بل عليه وعلى ما يحمله من العلم الشرعي،

والناس إذا زهدوا في العالم أو سقط من أعينهم تسقط كلمته أيضا.

وإذا كان يقول الحق ويهدي إليه فإن غيبة هذا الرجل لهذا العالم تكون حائلا بين الناس وبين علمه الشرعي، وهذا خطره كبير وعظيم.

أقول : إن على هؤلاء الشباب أن يحملوا ما يجري بين العلماء من الاختلاف على حسن النية، وعلى الاجتهاد، وأن يعذروهم فيما أخطئوا

(17) تلبيس إبليس (احتقار العلماء وذمهم) ص : 195.

فيه، ولا مانع أن يتكلموا معهم فيما يعتقدون أنه خطأ، ليبينوا لهم هل الخطأ منهم أومن الذين قالوا إنهم أخطئوا ؟ لأن الإنسان أحيانا يتصور أن قول العالم خطأ، ثم بعد المناقشة يتبين له صوابه، والإنسان بشر : «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**».

أما أن يفرح بزلة العالم وخطئه ليشيعها بين الناس فتحصل الفرقة، فإن هذا ليس من طريق السلف»[18].

وبعض الناس مع الأسف الشديد لا همّ لهم إلا تتبع سقطات العلماء وتلمُّس عثراتهم، فترى الواحد منهم يفرح بزلة العالم ويحاول تضخيمها ليتخذ منها سلما للقدح في العلماء، والتهجم عليهم والوقيعة فيهم، والنيل من أعراضهم، والاستهانة بهم، وهذا أمر مرفوض لأنه يؤدي إلى تنفير الناس منهم، وعدم الانتفاع بعلمهم وأخلاقهم، كما أن الاستهانة بهم استهانة بالدين.

متى يلتمس للناس عيبا يجد لهم عيوبا ولكنَّ الذي فيه أكثر

هؤلاء العلماء الذين عاشوا للقرآن ومع القرآن حفظا وفهما، وتدبرا وعملا، وقد انتدبهم الله جل في علاه لحمل هذا الدين، يواصلون الليل بالنهار، ويتعبون العقول والأبدان في تبليغه وصيانته، ويتحملون مشقة البحث والتنقيب في بطون الكتب، من أجل تقريب شريعة الله عز وجل للأمة.

ما هكذا ينبغي أن نعاملهم، فهم رموز هذه الأمة ومصابيحها، ولذا وجب احترامهم والدفاع عن كرامتهم، ومعرفة مقاديرهم، والاعتراف لهم بالجميل، والجهود التي يبذلونها باستمرار.

---

(18) كتاب العلم، ص : 29.

وصدور بعض الأخطاء منهم لا يبيح اغتيابهم بأي حال من الأحوال، لأنهم غير معصومين، فقد يخطئون وقد يزلون، وإن كانت لهم أخطاء فهي مغمورة في بحر حسناتهم

كما قيل في هذا المعنى :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع

***

ومن ذا الذي تُرضى سجاياه كفى المرء نُبلا أن تعد مَعَايِبُه

فينبغي النظر إليهم بعين الرضا، وغض الطرف عن مساوئهم حتى يُستفاد منهم ويُنتفع بعلمهم

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا
وللسخط عين لا تزال عبوسة وعين الرضا مكحولة بالتبسم

فالأمة لا تزال بخير مادامت تحترم علماءها وتبجل فقهاءها.

وقال ابن الحاج رحمه الله وهو يتحدث عن فضل أهل العلم :

«... وإذا كان الأمر كذلك، فينبغي الاعتناء بأمر العالم، وتقدم رتبته بالذكر على رتبة غيره من الرتب الباقية، إذ إنه غير محتاج لهم في مقامه الذي أقيم فيه، والباقون محتاجون إليه مضطرون لا تتم لهم صفقة، ولا يتقوم لهم أمر إلا بدخول العالم بينهم، وإلا كان سعيهم هباء منثورا...»[19].

وقال بكر أبو زيد :

إذا ظفرت بوهم لعالم فلا تفرح به للحط منه، ولكن افرح به لتصحيح المسألة فقط، فإن المنصف يكاد يجزم بأنه ما من إمام إلا وله أغلاط وأوهام لاسيما المكثرين منهم.

---

(19) المدخل، ج : 1 ص : 63.

وما يشغب بهذا ويفرح به للتنقص إلا متعالم يريد أن يطبّ زكاما فيحدث به جذاما. نعم يُنبَّه على خطأ أو وهم وقع لإمام غُمِر في بحر علمه وفضله، لكن لا يثير الرهج عليه بالتنقص منه والحط عليه فيغتر به من هو مثله[20].

وقال الحافظ ابن عساكر : اعلم يا أخي وفقنا الله وإياك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه ويتقيه حق تقاته، أن لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصهم معلومة، وأن من أطلق لسانه في العلماء بالثلب، بلاه الله تعالى قبل موته بموت القلب. ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم**﴾ [النور : 61][21].

ونشهد الله الذي لا إله غيره، على حبهم وتقديرهم وإجلالهم ونعتبر ذلك جزءا من ديننا وعقيدتنا

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعه
وأكره مَن تجارته المعاصي ... وإن كنا سويا في البضاعه

قال علي رضي الله عنه : محبة العلماء دين يدان الله به[22].

وقال الشنقيطي : حب العلماء طاعة وقربة وإيمان بالله وحسبة، نحبهم لكتاب الله الذي حفظوه، ولسنة رسول الله ﷺ التي وعوها وعلموها ودعوا إليها، نحبهم للدين، نحبهم لسمت الأخيار وشعار الصالحين، نحبهم لعظيم بلائهم على الأمة وما قدموا من خير لها، فاللهم عظم أجورهم، وثقل في الآخرة موازينهم[23].

---

(20) حلية طالب العلم، ص : 81.
(21) انظر تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، ص : 57، والتبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، ص : 25.
(22) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج : 1 ص : 86.
(23) الدر المختار، من خطب الشيخ محمد المختار، ص : 50.

ومقتضى محبتنا لهم تستوجب منا إجلالهم وتقديرهم.

قال ابن القيم رحمه الله في قوله ﷺ «**إن العلماء ورثة الأنبياء**»[24].

هذا من أعظم المناقب لأهل العلم، فإن الأنبياء خير خلق الله فورثتهم خير الخلق بعدهم، ولما كان كل موروث ينتقل ميراثه إلى ورثته إذ هم الذين يقومون مقامه من بعده و لم يكن بعد الرسل من يقوم مقامهم في تبليغ ما أرسلوا به إلا العلماء كانوا أحق الناس بميراثهم.

وفي هذا تنبيه على أنهم أقرب الناس إليهم، فإن الميراث إنما يكون لأقرب الناس إلى المورث، وهذا كما أنه ثابت في ميراث الدينار والدرهم، فكذلك هو في ميراث النبوة، والله يختص برحمته من يشاء.

وفيه أيضا إرشاد وأمر للأمة بطاعتهم، واحترامهم، وتعزيرهم، وتوقيرهم وإجلالهم، فإنهم ورثة مَن هذه بعضُ حقوقهم على الأمة، وخلفاؤهم فيهم.

وفيه تنبيه على أن محبتهم من الدين، وبغضهم مناف للدين، كما هو ثابت لموروثهم.

وكذلك معاداتهم ومحاربتهم، معاداة ومحاربة لله كما هو في موروثهم

قال علي رضي الله عنه «**محبة العلماء دين يدان الله به**»

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل : «**من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة**»[25].

وورثة الأنبياء سادات أولياء الله عز وجل[26].

---

(24) هذا جزء من حديث صحيح أخرجه الإمام الترمذي في السنن : (كتاب العلم).
(25) هذا جزء من حديث أخرجه الإمام البخاري : (كتاب الرقاق، رقم الحديث : 6502).
(26) مفتاح دار السعادة، ج : 1 الأصل الأول في (العلم وفضله وشرفه) ص : 86.

فنحن في حاجة إلى الإشادة بهم والتنويه بقدرهم، والرفع من مكانتهم، فهم أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، وأرباب النهى، ونباريس العلى، وسرج البلاد، ومنارات العباد، وهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته.

قال الحسن البصري، رحمه الله : لو لا العلماء لصار الناس مثل البهائم[27].

وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد ﷺ من آبائهم وأمهاتهم، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لأن آباءهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا، وهم يحفظونهم من نار الآخرة[28].

والعالم كالسراج من مر به اقتبس منه[29].

ربط الله على قلوبهم، فكانوا قادة هذه الأمة وأعلامها، فكم من علم في الأمة نشروه، وكم من جهد بذلوه، ومعروف عرَّفوه، ومنكر أنكروه، وحق أقاموه، وباطل أبطلوه، وخير أذاعوه، وشر قمعوه، ومعترض على الشريعة ألجموه، وجاهل علموه، وتائه عن سبيل الرشد بصروه، وضال عن الصراط المستقيم أرشدوه، وغافل ذكروه، كم من حسنة دعوا إليها، وعبادة أعانوا عليها، ومعصية زجروا عنها، وسيئة نفروا منها، وكم من معالم نصبوها، وفتن أخمدوها، وشبه عن الأمة دفعوها، وحجج أقاموها، ظهرت لهم معالم الحق فأمّوها وقصدوها، ولاحت لهم طرق الضلالة فتركوها ورفضوها، وبدت لهم الطريق فخاضوها وسلكوها.

---

(27) إحياء علوم الدين، للغزالي جـ : 1 ص : 23.
(28) إحياء علوم الدين، ج : 1 ص : 23 (فضيلة التعليم).
(29) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ج : 1 ص : 73.

قيل لبعضهم : فيم لذتك ؟ قال : في حجة تتبختر اتضاحا، وشبهة تتبخر افتضاحا.

فطالما نصحوا ووضحوا، لا أخلى الله الوجود من عدول العلم وحملته، الذين يبينون للناس ما أنزل إليهم من ربهم، ويعتصمون بسنة نبيهم.

كانوا يحملون نفوسا عظيمة، تواقة لفعل الخير والدعوة إليه، مهما كلف ذلك من ثمن، حرموا أنفسهم من التلذذ بنعيم الدنيا على حساب الآخرة، أتعبوا الأبدان، وطافوا البلدان، في تبليغ دين الرحمان، وبذلك سادوا وأفادوا، وبلغوا ما أرادوا.

لولا المشقة ساد الناس كلهمُ الجود يُفقر والإقدام قتال

تحملوا في سبيل تبليغ العلم المشاق والصعاب، وذاقوا المر والعلقم، وبذلك نالوا المجد والشرف

كما قيل :

لا تحسب المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبِرا

قال ابن الجوزي رحمه الله : من رزق همة عالية يعذب بمقدار علوها

كما قال الشاعر :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجساد

وقال الآخر :

ولكل جسم في النحول بلية وبلاء جسمي من تفاوت همتي[30].

وقال آخر :

ومن تكن العلياءُ همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها مُحبب

(30) انظر صيد الخاطر، فصل (في علو الهمة) ص : 331.

وقال آخر :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتكبر في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

قال عبد الله بن مسعود : المتقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة[31].

سئل عبد الله بن المبارك من الناس ؟ فقال :

العلماء، قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد، قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين[32].

فهم أهل الفضل والنظر، والعلم والأثر، وأهل الحل والعقد، والرأي والعدل، والصبر والعلم، والفهم والحلم، والتحقيق والتدقيق، والبحث والتمحيص، وأهل النوازل والمدلهمات، والنوائب والمعضلات، والغوامض والعويصات، والخطوب والمستعصيات، وقد تجرعوا مرائرها عدة مرات

خلق الله للخطوب رجالا وأناساً لقصعة وثريد

كانوا رحمهم الله أهل خطوب وعلوم، ولم يكونوا أصحاب ثريد وقصاع.

وقال آخر :

هم الرجال فعيب أن يقال لِمَن لم يتصف بجميل وصفهم رجل

عرفوا رحمهم الله تعالى بالتفاني في خدمة دينهم الحنيف، ما تقاعسوا عن تبليغه، ولا تباطئوا عن حمل لوائه، كرسوا حياتهم لخدمة هذا الدين

(31) الفوائد، لابن القيم، تحت عنوان (من حكم ابن مسعود رضي الله عنه) ص : 183.
(32) إحياء علوم الدين، ج : 1 ص : 18. والمدخل لابن الحاج، ج : 1 ص : 69.

وحمايته وصيانته، وترسيخه في الأمة، والإعلاء من شأنه، نصحوا أمتهم، وأدوا مهمتهم، وبلغوا رسالتهم، وقاموا بوظيفتهم، لله درهم ما أقوى عزائمهم، وما أعظم هممهم، وما أكبر اهتماماتهم، وما أشد رباطة جأشهم، لم يكونوا بمعزل عن أمتهم، ما كانوا يعيشون في الأبراج العالية، بعيدين عن الأمة وهمومها، بل كانوا يعيشون معها، حاملين همومها، عاملين على تضميد جراحها، وتسكين آلامها، وشحذ هممها، وتحريك عزائمها، وتقوية أواصر المحبة بين أفرادها ووشائج الأخوة فيها.

فليت شعري هل أدركت الأمة مكانة علمائها، وهل فهمت ما ذا يجب عليها نحوهم، وهل عرفت لمن تسلم قيادتها ؟ !

حصل بوجودهم خير كثير للإسلام، ودفع بهم شر عظيم عن الأنام، فهم الناطقون في الميدان، الحاملون لراية القرآن، الحافظون لشريعة الرحمان، الذائدون عن سنة العدنان، الداعون إلى كتاب المنان، الذابون عن حياض الأديان، المرغبون في الجنان، الساعون في منع الفساد، ورفع الظلم عن العباد، المشمرون للإصلاح، الداعون إلى الفلاح، فهم أطباء القلوب والأرواح، ومراهم القروح والجراح، والدواء الناجع للأ تراح، وهم السياج المتين، والدرع الحصين، الذي تتحصن فيه الأمة، وتحتمي به من ضربات العدو وهجماته المستمرة.

وما أحوج الأمة اليوم وهي تعيش هذه المرحلة الصعبة من مراحلها، التي انتشرت فيها فتن كقطع الليل المظلم عمت الحواضر والبوادي، والدور والنوادي، إلى أمثال هؤلاء العلماء الربانيين ذوي العلوم والفهوم، ينفضون عنها غبار الجهل والغفلة، ويوقدون جذوة الإيمان في قلوبها، التي خبا نورها اليوم في الأمة أو كاد يخبو، ويوقظونها من سباتها، ويجمعون كلمتها، ويوحدون صفوفها، ويرفعون الذل عنها،

ويحمونها من الآفات والأزمات الخطيرة، التي فتكت بالأمة على تعاقب الأزمنة واختلاف الأمكنة، ومازال فتكها يتفاقم ويستفحل، ويسيرون بها في مدارج العز ومعارج التقدم، ويوجهونها إلى الله رب العالمين، فالأمة الإسلامية اليوم تعاني من ضعف كبير وتمزق شديد.

إنها مرحلة الغثائية، التي أخبر عنها النبي ﷺ وسبب هذا الضعف الوهن الذي هو حب الدنيا وكراهية الموت، فكثير من المسلمين اشتغل اليوم بطلب الدنيا على حساب الدين، وتبا لدنيا ليس معها دين.

ولله در إبراهيم بن أدهم القائل :

نُرَقِّع دنيانا بتمزيق ديننا فلا ديننا يَبْقى ولا ما نرقِع

لقد أثنى الله على هؤلاء العلماء في كتابه العزيز، فجعلهم أهل خشيته **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾** [فاطر الآية : 28].

وقال تعالى : **﴿يرفع الله الذين ءامنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾** [المجادلة : 11].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : مدح الله العلماء في هذه الآية.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : خير سليمان عليه الصلاة والسلام، بين العلم والمال والملك فاختار العلم فأعطي المال والملك معه[33].

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : **﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط﴾** [آل عمران الآية : 18].

هذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام.

(33) الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، ج : 9 سورة المجادلة، الآية 11.

وقال الإمام القرطبي : في هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء وفضلهم، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن اسم العلماء.

وَقَالَ ابن القيم : استشهد الله عز وجل بأهل العلم على أجل مشهود به وهو «التوحيد» وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم، فإنه تعالى لا يستشهد بمجروح[34].

فبقاؤهم في الأمة نعمة ورحمة وغنيمة، ورحيلهم إلى الله ثلمة ونقمة ومصيبة.

كيف لا وهم ورثة الأنبياء وحماة الدين، وحراس الشريعة، وحملة العلم، إن ذهبوا ذهب معهم العلم.

جاء في الحديث : «... **موت العالم مصيبة لا تجبر، وثُلمة لا تُسَد، ونجم طمس، وموت قبيلة أيسر من موت عالم**»[35].

قال الإمام ابن القيم معلقا على هذا الحديث : لما كان صلاح الوجود بالعلماء، ولولاهم كان الناس كالبهائم، بل أسوأ حالا، كان موت العالم مصيبة لا يجبرها إلا خلف غيره له، وأيضا فإن العلماء هم الذين يسوسون العباد والبلاد والممالك، فموتهم فساد لنظام العالم، ولهذا لا يزال الله يغرس في هذا الدين منهم خالفا عن سالف يحفظ بهم دينه وكتابه وعباده...[36]

---

(34) مدارج السالكين، ج : 439/2 (منزلة العلم).

(35) رواه المنذري في الترغيب والترهيب : (كتاب العلم)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، ج :1 ص : 46، وحسنه ابن القيم في مفتاح دار السعادة (82/1) وضعفه الألباني : (ضعيف الترغيب والترهيب، ج : 1).

(36) مفتاح دار السعادة، ج : 1 ص : 88.

وصح عن النبي ﷺ : «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور العلماء، ولكن يقبضه بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا**»[37].

وكان تحديث النبي ﷺ بهذا الحديث في حجة الوداع، كما رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة، قال : لما كان في حجة الوداع قال النبي ﷺ : «**خذوا العلم قبل أن يقبض أو يرفع فقال أعرابي : كيف يرفع ؟ فقال : ألا إن ذهاب العلم ذهاب حملته**» ثلاث مرات[38].

وقال عبد الله بن مسعود: تعلموا العلم قبل أن يقبض، وقبضه أن يذهب أهله، ألا وإياكم والتنطع والتعمق والبدع وعليكم بالعتيق[39].

قيل : **حياة العالِم حياة العالَم.**

فموت العالم يؤسف له، لأن فقد العالم ليس فقدا لشخصيته فقط، ولكنه فقد لجزء من ميراث النبوة، فقد العالم لا يعوض بمال ولا عقار ولا دينار، إلا أن ييسر الله من يخلفه، فيقوم بمثل ما قام به من التعليم والتوضيح.

قال عمر رضي الله عنه: موت ألف عابد أهون من موت عالم بصير بحلال الله وحرامه[40].

قال ابن القيم في تعليقه على قول عمر رضي الله عنه : ووجه قول عمر، أن هذا العالم يهدم على إبليس كل ما يبنيه بعلمه وإرشاده، وأما العابد فنفعه مقصور على نفسه[41].

---

(37) أخرجه الإمام البخاري والإمام مسلم في كتاب (العلم).
(38) انظر فتح الباري ، ج : 1 (كتاب العلم، باب : 34).
(39) سنن الدارمي، ج : 1 ص : 251.
(40) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج : 1 ص : 153. والجامع، لابن عبد البر، ج : 33/1.
(41) مفتاح دار السعادة، ج : 1 الأصل الأول في (العلم وفضله وشرفه) ص : 153.

ذكر الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى : ﴿**أو لم يروا أنا ناتي الارض ننقصها من أطرافها**﴾ [الرعد الآية : 42]. عن ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية عنه في نقصان الأرض: أنه خرابها بموت علمائها وفقهائها، وأهل الخير منها، وكذا رواية عن مجاهد بأنه موت العلماء.

كما قال بعضهم :

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف[42].

وقال آخر :

ولا تنقص الدنيا إذا مات جاهل ... ونقصانها حقا إذا مات عالم

وقال آخر :

لعمْرك ما الرزيّة فقد مال ... ولا شاة تموت ولا بعير
ولكن الرزية فقد حُر ... يموت بموته بَشر كثير

مات هؤلاء العلماء، ولكن ما ماتت مواعظهم المؤثرة، وكلماتهم الندية، ماتوا والله ما ماتت مواقفهم، وكيف يموت من نشر الفضائل والمكرمات، وكشف عن الشبهات، وبين أمراض الشهوات، والحديث النبوي الصحيح يقول : «**إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[43].

أخو العلم حيٌ خالدٌ بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يعد من الأحياء وهو عديم

وقال آخر

يموت قوم فيحيي العلمُ ذكرهمُ ... والجهل يُلحق أحياء بأموات

(42) انظر تفسير القرآن العظيم، ج : 2 سورة (الرعد) الآية : 42.
(43) أخرجه الإمام مسلم في كتاب : (الوصية) جـ : 11 ص : 72.

قال الإمام ابن القيم رحمة الله عليه : من أراد السفر إلى الله، فعليه بمرافقة الأموات، الذين هم في العالم أحياء، فإنه يبلغ بمرافقتهم إلى مقصده، وليحذر من مرافقة الأحياء، الذين في الناس أموات، فإنهم يقطعون عليه طريقه، فليس لهذا السالك أنفع من تلك المرافقة، وأوفق له من هذه المفارقة، فقد قال بعض من سلف :

شتان بين أقوام موتى تحيا القلوبُ بذكرهم، وبين أقوام أحياء تموت القلوب بمخالطتهم[44].

ومراده بالأموات الأحياء : العلماء، كما قال علي رضي الله عنه : «... مات خزّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة...»[45].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله معلقا على كلام الإمام علي رضي الله عنه : المراد بـ (أمثالهم) صورهم العلمية ووجودهم المثالي، أي وإن فقدت ذواتهم فصورهم وأمثالهم في القلوب لا تفارقها، وهذا هو الوجود الذهني العلمي، لأن محبة الناس لهم واقتداء هم بهم وانتفاعهم بعلومهم، يوجب أن لا يزالوا نصب عيونهم، وقبلة قلوبهم، فهم موجودون معهم، وحاضرون عندهم، وإن غابت عنهم أعيانهم[46].

فآثارهم لم تزل موجودة إلى يومنا هذا، إن ذكروا ترحم الناس عليهم، ودعوا لهم، وإن ذكرت الأعمال الصالحة، فهم قدوة الناس فيها، فالعالم إذا مات إنما يغيب شخصه فقط، أما ذكره فيبقى مخلدا بما نشره في الناس من علم.

---

(44) الرسالة التبوكية، ص : 226.

(45) مفتاح دار السعادة جـ : 1 ص : 155.

(46) مفتاح دار السعادة، جـ : 1 الأصل الأول في (العلم وفضله وشرفه) ص : 173.

فما أحوج الأمة إلى الوقوف على ما كانوا عليه من علم غزير، وزهد كبير، وورع كثير، وخوف شديد، ففضائلهم جمة، ومناقبهم عدة.

وإنك لتجد الكثير في عصرنا ممن ينتسبون إلى الإسلام، يهتمون بسير أشخاص، وحياة أناس، في ميادين مختلفة، يدرسون تاريخهم، وينشرون فضائلهم وأفكارهم، وإن لم تكن لهم فضائل، ويلقنونها للأجيال الصاعدة، لينشئوا عليها ويعيشوا عليها.

وينشأ ناشئ الفتيان فينا ... على ما كان عوده أبوه

لينشروها بدورهم بين أسرهم ومجتمعاتهم، فتجدهم يعرفون عن هؤلاء مالا يعرفون عن أئمة الإسلام، بل ما لا يعرفونه عن النبي الهمام، ورسول الأنام، عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.

وهذا هو الذي يؤسف له حقا، أن نجد بعض من ينتسب للإسلام، يتنكرون لتاريخ هذه الأمة ومكانتها، ولتاريخ علمائها، ويجهلون أو يتجاهلون سيرهم الفاضلة، وأمجادهم الواضحة، معرضين عن كل ما من شأنه أن يرفع مقام هؤلاء العلماء عند الناس، ويُعلي منازلهم، ويظهر مناقبهم.

ومقبلين على كل ما من شأنه أن ينسي الناس تاريخهم ويمحو آثارهم، ويظهر مثالبهم، وهذا اعتداء على هؤلاء الأئمة الكرام وظلم لهم، وأشد الظلم وأعظمه وقعا على النفس ذلك الذي يأتي من جهة القريب

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة ... على النفس من وقْع الحسام المهند

وصدق ابن الوردي حيث قال :

ليس يخلو المرء من ضد وإن ... حاول العزلة في رأس جبل[47]

(47) لامية ابن الوردي المسماة بـ (نصيحة الإخوان، ومرشدة الأنام).

وكيف تفلح أمة نسيت أو تناست تاريخها وتاريخ علمائها وفقهائها، فبنشر تاريخ هؤلاء الأئمة الفضلاء، الحافل بالمواقف العظيمة، تحيا هذه الأمة، وتعود إلى ما كان عليه أسلافها من تمسك بكتاب الله المبين، وعمل بهدي رسوله الأمين.

فدراسة سير هؤلاء العظماء لها وقع كبير على القلوب، وتأثير عظيم في ربط الناس بعلام الغيوب.

ومعرفة الفضل لأهله تستوجب منا أن نعيش مع هؤلاء الأئمة المُربّين، وأن ننشر فضائلهم الطيبة، وأن نلقن أطفالنا سيرهم العطرة، كيف وقد شُهد لهم بالاستقامة والإمامة في الدين والعلم.

فقد أسدوا إلى هذه الأمة خيرا كثيرا، لقد ضحوا بكل ما أوتوا من قوة وجهد لإقامة هذا الدين وتبليغه لعامة الناس، نشروا في الأمة العلوم النافعة، والأخلاق الفاضلة، وكانوا حريصين على جمع كلمتها، وتأليف قلوبها، ورص صفوفها، ولم شعثها، فساروا بها إلى الله، ورسخوا في قلوبها حبه، والخوف منه، والإذعان لأحكامه، والإخلاص له.

وربوها على الود والإخاء، والحب والصفاء، والطهر والنقاء، والتضحية والفداء، فانتشر الأمن وعم الرخاء، وساد الوئام والوفاء، فعاشت الأمة موصولة بربها، عاملة بكتاب بارئها، معتزة بدينها، فخورة بإيمانها، متمسكة بسنة نبيها، مجلة لصحابة رسولها مبجلة لعلمائها عارفة مسئوليتها.

قال أبو بكر الآجُرِّي رحمه الله تعالى : فالعلماء في كل حال لهم فضل عظيم في خروجهم لطلب العلم، وفي مجالستهم لهم فيه فضل، وفي مذاكرة بعضهم لبعض لهم فيه فضل، وفيمن تعلَّموا منه العلمَ لهم فيه

فضل، وفيمن علَّموه العلمَ لهم فيه فضل، فقد جمع الله للعلماء الخير من جهات كثيرة نفعنا الله وإياهم بالعلم[48].

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

نعم فالدين حفظ بهؤلاء العلماء وأمثالهم وأقرانهم ممن يخشون الله حق خشيته، ولا يخافون فيه لومة لائم، فمثل هؤلاء العلماء في الأرض، كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

قال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب في اليوم مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه[49].

وقال ابن القيم : أما حاجتهم إليه (الرسول) في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب، والنفَس الذي به حياة أبدانهم...[50].

وتزداد هذه الحاجة كلما ابتعد الناس عن دين الله عز وجل.

وقد بين النبي صلوات الله وسلامه عليه في أحاديث كثيرة، فضل هؤلاء العلماء، وعلو منزلتهم، وأنهم ورثة الأنبياء، والحاملون لدعوتهم.

فبهم تعرف الأمة دينها، وتميز بين الخير والشر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر، والطيب والخبيث، وما يضمن لها عزها وكرامتها، وما يسعدها في دنياها وأخراها، والنبي ﷺ يقول :

«إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجوم أوشك أن تضل الهداة»[51].

---

(48) أخلاق العلماء، ص : 41.

(49) مدارج السالكين، ج : 2/439 (منزلة العلم).

(50) انظر الفوائد، تحت عنوان : (حاجة الناس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم) ص : 193.

(51) رواه الإمام أحمد في المسند، وضعفه الشيخ الألباني : (ضعيف الترغيب والترهيب، ج : 1).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : «... فإن قيل : تشبيه العلماء بالنجوم أمر معلوم... فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر ؟

قيل : أما تشبيه العلماء بالنجوم، فإن النجوم يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وكذلك العلماء، والنجوم زينة للسماء، فكذلك العلماء زينة للأرض، وهي رجوم للشياطين حائلة بينهم وبين استراق السمع لئلا يُلبّسوا بما استرقوه من الوحي الوارد إلى الرسل من الله على أيدي ملائكته، وكذلك العلماء رجوم لشياطين الإنس والجن الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا، فالعلماء رجوم لهذا الصنف من الشياطين، ولولاهم لطمست معالم الدين بتلبيس المضلين، ولكن الله سبحانه أقامهم حراسا وحفظة لدينه، ورجوما لأعدائه وأعداء رسله، فهذا وجه تشبيههم بالنجوم.

وأما تشبيههم بالقمر فذلك كان في مقام تفضيلهم على أهل العبادة المجردة وموازنة ما بينهما من الفضل، والمعنى: أنهم يفضُلون العباد الذين ليسوا بعلماء كما يفضُل القمر سائر الكواكب، فكل من التشبيهين لائق بموضعه والحمد لله»[52].

***

وإلى جانب هؤلاء العلماء الأجلاء، أشخاص آتاهم الله العلم، ومنحهم الآيات، فانسلخوا منها ونبذوها وراء ظهورهم، ورضوا لأنفسهم بالحياة الدنيا واطمأنوا بها واشتروها بالآخرة، فلا العلمَ نشروا، ولا الإسلامَ نصروا، ولا الأعداءَ كسروا، وبيس ما صنعوا، ما انتفعوا بعلمهم ولا نفعوا، وما استفادوا ولا أفادوا، وكان المفروض فيهم أن يعملوا ويُعلّموا، و يكونوا قدوة حسنة للناس في الخير، ولكنهم كانوا على العكس من

(52) مفتاح دار السعادة، ج : 1 ص : 85.

ذلك، يدفعون العامة بأفعالهم إلى ترك المأمورات وارتكاب المنهيات، وتلك مصيبة يُصاب بها العامة، أن يروا القدوة على هذا الحال.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء وفي الحقيقة قطاع الطرق[53].

وفي هؤلاء قال عمر رضي الله عنه : ثلاث يَهدِمن الدين، زلة عالم، وجدال منافق بالقران، وأئمة مضلون[54].

وفي الحديث الصحيح : «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أيْ فلان ما شأنك ؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[55].

«زَلَّةُ العَالِمِ»

وقال بعضهم : زلة العالم مضروب بها الطبل[56]. وزلة الجاهل يخفيها الجهل.

قال ابن عبد البر : وشبه الحكماءُ زلة العالم بانكسار السفينة، لأنها إذا غرقت غرق معها خلق كثير، وإذا صح وثبت أن العالم يزل ويخطئ، لم يجز لأحد أن يفتي ويدين بقول لا يعرف وجهه[57].

---

(53) الفوائد، ص : 89، تحت عنوان : (العداوة بين الخير والشر).
(54) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، جـ : 2 ص : 337.
(55) أخرجه الإمام البخاري في كتاب : (بدء الخلق) والإمام مسلم في كتاب : (الزهد والرقائق).
(56) الموافقات، للإمام الشاطبي، جـ : 4، ص : 123.
(57) جامع بيان العلم وفضله، ج : 2 ص : 339.

قال ابن القيم رحمه الله : ومن المعلوم أن المخوف في زلة العالم تقليده فيها، إذ لولا التقليد لم يخف من زلة العالم على غيره[58].

قيل : **احذروا زلة العالِم، فإنه إذا زل زل بزلته عالَم**[59].

وقال مالك بن دينار : قلت للحسن البصري : ما عقوبة العالم إذا أحب الدنيا؟ قال : موت القلب، فإذا أحب الدنيا، طلبها بعمل الآخرة، فعند ذلك ترحل عنه بركات العلم، ويبقى عليه رسمه[60].

وقال عمر رضي الله عنه : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم، فإن كل محب يخوض فيما أحب[61].

فالعلم سبب سعادة الإنسان، وهو حياة القلوب والأرواح، لكن أحيانا قد ينقلب وبالا على صاحبه، فيلقي به في المهالك، عياذا بالله، ولا عبرة بعلم لم يعمل به صاحبه.

كما قيل :

لو كان في العلم من دون التقى شرف لكان أشرف خلق الله إبليس

يدعون الناس إلى المعروف ولا يأتونه، وينهونهم عن المنكر ويأتونه، وما أشقى الإنسان أن يوتيه الله علما فيعلمه لغيره، فيعمل به فيسعد به، ويشقى به هو، إن هذا لهو الخسران المبين.

وقد ضرب الله تعالى مثلا في القرآن لهذا الصنف من العلماء بأخس الحيوانات وأحقرها همة، فقال تعالى : ﴿**واتل عليهم نبأ الذي ءاتيناه ءاياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد**

---

(58) اعلام الموقعين، ج : 2 ص : 133.
(59) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية ج : 20 ص : 274.
(60) البداية والنهاية، لابن كثير، ج : 6 ص : 413 (ترجمة الحسن البصري).
(61) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي ج : 1، ص : 85.

إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بئاياتنا، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الأعراف : 175].

قال ابن القيم رحمه الله : فهذا مثل عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه، وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه :

منها : أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة، وأسقطها نفسا، وأبخلها وأشدها كلبا، ولهذا سمي كلبا.

ومنها : أنه شبه لهثه على الدنيا، وعدم صبره عنها، وجزعه لفقدها، وحرصه على تحصيلها بلهث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن ترك فهو لهثان على الدنيا وإن وعظ وزجر فهو كذلك، فاللهث لا يفارقه في كل حال كلهث الكلب.

قال ابن قُتيبة رحمه الله : كل شيء يلهث، فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب فإنه يلهث في حال الكلال، وحال الراحة، وحال الري، وحال العطش، فضربه الله مثلا لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث.

وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه[62].

وقال ابن القيم رحمه الله : والله تعالى يشبه أهل الجهل والغي تارة بالأنعام، وتارة بالحمر، وهذا تشبيه لمن تعلم علما و لم يعقله و لم يعمل به، فهو كالحمار الذي يحمل أسفارا.

---

(62) انظر هذه الأوجه في كتاب : الفوائد ص : 135.

وتارة بالكلب وهذا لمن انسلخ عن العلم وأخلد إلى الشهوات والهوى[63].

قال سفيان بن عيينة وغيره : احذروا فتنة العالم الفاجر، وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فهذا بجهله يصد عن العلم وموجبه، وذاك بغيه يدعو إلى الفجور[64].

وقال أيضا : من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا كان فيه شبه من النصارى[65].

وقال الربيع بن أنس : من لم يخش الله فليس بعالم[66].

وقال عيسى عليه الصلاة والسلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على فم النهر لا هي تشرب الماء، ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع، ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها جص وباطنها نتن، ومثل القبور ظاهرها عامر وباطنها عظام الموتى[67].

وقال علي رضي الله عنه : قصم ظهري رجلان : عالم مُتَهتِّك، وجاهل متَنسِّك[68].

ذكر الإمام القرطبي رحمه الله أن أبا عمرو بن مطر قال : حضرت مجلس أبي عثمان الحيرى الزاهد، فخرج وقعد على موضعه الذي كان يقعد عليه للتذكير، فسكت حتى طال سكوته، فناداه رجل كان يعرف بأبي العباس، ترى أن تقول في سكوتك شيئا ؟

---

(63) مفتاح دار السعادة، جـ : 1 ص : 177.

(64) الفوائد، لابن القيم ، ص : 137.

(65) تفسير الإمام ابن كثير، جـ : 2 الآية 35 من سورة التوبة.

(66) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، سورة فاطر الآية : 28.

(67) إحياء علوم الدين، للغزالي، فصل في (آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء) ج : 84/1.

(68) إحياء علوم الدين، جـ : 1 ص : 82.

فأنشأ يقول :

وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوي والطبيب مريض

قال : فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج[69].

انظر كيف أثرت هذه الكلمات القليلة في الحاضرين، وكيف حركت مشاعر السامعين، وذلك لأنها صادرة من القلب، والموعظة إذا صدرت من القلب أثرت في السامعين تأثيرا عجيبا.

فعن ذرّ أنه قال لأبيه عمر بن ذرّ : يا أبي مالك إذا وعظت الناس أخذهم البكاء، وإذا وعظهم غيرك لا يبكون ؟ فقال يا بني : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة[70].

كما قيل في هذا المعنى :

وكل يدعي وصلا بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا
إذا اشتبكت دموع في جفون تبين من بكى ممن تباكا

وفي مختصر منهاج القاصدين : واعلم أن المأخوذ على العالم أن يقوم بالأوامر والنواهي، وليس عليه أن يكون زاهدا ومعرضا عن المباحات، إلا أنه ينبغي له التقلل من الدنيا مهما استطاع، لأنه ليس كل جسم يقبل التعلل، فإن الناس يتفاوتون.

وروي أن سفيان الثوري رحمه الله، كان حسن المطعم وكان يقول: إن الدابة إذا لم يحسن إليها في العلف لم تعمل.

وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، يصبر من خشونة العيش على أمر عظيم، والطباع تتفاوت. انتهى منه بلفظه[71].

---

(69) الجامع لأحكام القرآن، الآية : 43 من سورة البقرة.
(70) انظر حلية الأولياء،لأبي نعيم ج : 5 ص : 111.
(71) فصل في (آفات العلم، وبيان علماء السوء، وعلماء الآخرة) ص : 21.

وإن صلاح الأمة، مرهون بصلاح علمائها وأمرائها، صنفان إذا صلحا صلحت الأمة العلماء والأمراء.

قال ابن القيم رحمه الله : ولما كان قيام الإسلام بطائفتي العلماء والأمراء، وكان الناس كلهم لهم تبعا، كان صلاح العالم بصلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما، كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف : صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل : من هم ؟ قال الملوك والعلماء.

ولله دره (ابن المبارك) حيث قال :

رأيت الذنوب تميت القلوب ... وقد يورث الذلّ إدمانُها
وترك الذنوب حياة القلوب ... وخير لنفسك عصيانُها
وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانُها[72]
فباعوا النفوس و لم يربحوا ... و لم تغل في البيع أثمانُها
لقد رتع القوم في جيفة ... يبين لذي اللب خسرانُها

قال قتادة : العلماء كالملح، إذا فسد الشيء صلح بالملح، وإذا فسد الملح لم يصلح بشيء[73].

وإذا فسد العلماء فما ذا ينتظر من عامة الأمة ؟

وصدق من قال :

يا علماءَ الدين يا ملحَ البلد ... من يُصلِح الملحَ إذا الملح فسد

ونظرا لأهمية هذا الموضوع، ولما تحتوي عليه دراسة حياة أئمة الإسلام من هذه الفوائد العديدة، والمنافع الجليلة، ولا سيما الأئمة الأربعة

---

(72) اعلام الموقعين، ج : 1 ص : 8. انظر تتمة هذه الأبيات في جامع بيان العلم وفضله، ج : 1 ص : 197.

(73) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ج : 1 ص : 200.

أصحاب المذاهب الفقهية، التي انتشرت شرقا وغربا، واشتهرت بين الناس في الماضي والحاضر، فعمت أقوالهم، وكثر أتباعهم، وكانت مذاهب أخرى في عصرهم كمذهب الإمام عبد الرحمان الأوزاعي (إمام أهل الشام) وسفيان الثوري، ولكنها اندثرت وتلاشت أعني من حيث الانتشار، أما من حيث الاستدلال، فمازالت أقوالهم وآراؤهم موجودة ومبسوطة في بطون الكتب، يستدل بها.

قال الإمام الذهبي رحمه الله : وكذلك اشتهر مذهب الأوزاعي مدة، وتلاشى أصحابه وتفانوا، وكذلك مذهب سفيان وغيره ممن سمَّينا، و لم يبق اليوم إلا هذه المذاهب الأربعة، وقل من ينهض بمعرفتها كما ينبغي، فضلا عن أن يكون مجتهدا[74].

وقال الغزالي : كان سفيان وابن حنبل من أشهر الأئمة بالورع، وأقلهم أتباعا، وأما الآن بعد الخمسمائة، فمذهب سفيان متروك، وقد أجمع المسلمون على الأربعة المعلومين الذين منهم أحمد بن حنبل[75].

وشاءت حكمة الله تعالى أن تنتشر مذاهب هؤلاء الأربعة وتستمر إلى الآن فصار لهم أتباع كثيرون، ومحبون صادقون، وقد عاصرهم علماء كبار، ومع ذلك لم ينالوا مثل هذه المرتبة، التي نالوها، وذلك فضل الله يوتيه من يشاء.

قال الإمام الشافعي : المذاهب لا تموت بموت أربابها[76].

وكان لطلبتهم وتلاميذهم دور كبير، وعمل رشيد، في نشر مذاهبهم وبث أقوالهم، وقد حظي هؤلاء الأربعة بشهرة كبيرة، جعلتهم يحتلون

---

(74) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).
(75) الفكر السامي ، للحجوي، ج : 3 ص : 28.
(76) الفكر السامي، ج : 473/4.

مكانة عظيمة في قلوب الأمة عامة، وفي قلوب الأتباع خاصة، وهذا ليس من قبيل الصدف، وإنما هو منحة من الله نحلها هؤلاء الفضلاء بعد ما أحبهم ووضع لهم القبول في الأرض، منحهم الله تعالى محبة عند الخلق وسعة في العلم، وقوة في الذكاء، وصدقا في الإيمان، وإخلاصا في العمل، وصلابة في الحق وجرأة فيه، وحجة في القول، وبيانا في التبليغ، نالوا من العلم الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، ارتضعوا من ثدي الوحي، وما انفصلوا عنه بفطام، واستضاءوا بنوره واستمدوا العون من منزله وقائله.

وإنما نالوا هذه المنزلة العالية، والمرتبة الغالية، بما بذلوه من تضحيات جسيمة، وجهود عظيمة، في خدمة الشريعة والفقه الإسلامي، حيث تركوا للأمة تراثا إسلاميا ضخما.

قال ابن خلدون : وقد صار أهل الإسلام اليوم على تقليد هؤلاء الأئمة الأربعة[77].

وهؤلاء هم زعماء الفقه، كما قال الإمام الغزالي :

فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق، أعني الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة وسفيان الثوري رحمهم الله تعالى، وكل واحد منهم كان عابدا وزاهدا وعالما بعلوم الآخرة، وفقيها في مصالح الخلق في الدنيا، ومريدا بفقهه وجه الله تعالى...[78].

وقال في المراقي :

والمُجْمَع اليوم عليه الأربعه وقَفْو غيرها الجميع منعه[79].

---

(77) مقدمة ابن خلدون، ص : 496.

(78) إحياء علوم الدين، ج : 1، ص : 39.

(79) (مراقي السعود) في أصول الفقه، لعبد الله الشنقيطي.

وقال ولي الله الدهلوي : إن هذه المذاهب الأربعة المدونة المحررة قد اجتمعت الأمة أومن يعتد به منها على جواز تقليدها إلى يومنا هذا، وفي ذلك من المصالح ما لا يخفى لاسيما في هذه الأيام التي قصرت فيها الهمم جدا، وأشربت النـفوس الهوى، وأعجـب كل ذي رأي برأيه[80].

نظرا لذلك كله قمت بجمع هذه النبذة المختصرة من حياة هؤلاء الأئمة، لإعطاء صورة ولو مصغرة عن جوانب منها، وهو محاولة متواضعة، وجهد المقل، والله أسأل أن يكسوه حلل القبول، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون، إنه سميع قريب مجيب، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

(80) حجة الله البالغة، ج : 1 ص : 286.

الإمام الأعظم أبو حنيفة (80 - 150 هـ)

شاءت حكمة الله تعالى أن يكون أبو حنيفة أول الأئمة الأربعة ظهورا، كان أولهم ولادة، وأسبقهم وفاة، فاستحق أن يأتي الكلام عنه في الطليعة، ولذلك سأبدأ بالحديث عنه، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه وهكذا.

وهم أظهر من نار على جبل، وشهرتهم تغني عن التعريف بهم.

نسبه :

هو الإمام الكبير أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطى[81] الكوفي مولى بني تيم الله بن ثعلبة، وزوطى هذا جده، وأصله من كابل (عاصمة أفغانستان اليوم) أسره الفاتحون العرب لما فتحوا أرض فارس وما وراءها، كان من وجهاء الأفغان وتجارها، فنقل إلى الكوفة فاستوطنها، فأسلم وحسن إسلامه.

وقيل : إن أبا حنيفة من أبناء فارس الأحرار، الذين لم يقع عَلَيْهم رق، وأن جده أسلم طوعا، وهاجر إلى الكوفة.

يكنى بأبي حنيفة، مؤنث حنيف، وهو الناسك أو المسلم، وقيل : إن الحنيفة هي الدواة بلغة أهل العراق، فلقب به لملازمته الدواة في أغلب أوقاته[82].

---

(81) بضم الزاي وسكون الواو وفتح الطاء بعدها ألف مقصورة كما في الوفيات لابن خلكان ج : 3 ص : 201 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

(82) انظر أوجز المسالك، إلى موطأ مالك، لمحمد زكريا الكاندهلوي، ج : 1 ص : 171 (الإمام الأعظم أبو حنيفة).

وهو فقيه العراق، وأحد أئمة الإسلام، والسادة الأعلام، وأحد أركان العلم، وأحد الأئمة الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، وشيخ فقهاء القياس، وإمام أهل الرأي.

قيل : إنه أدرك بعض الصحابة رضي الله عنهم، ورأى أنس بن مالك، وقيل : رأى غيره، فعلى هذا يكون تابعيا، وقيل لم يُدْرك أحدا من الصحابة، فعلى هذا يكون من أتباع التابعين.

مولده ونشأته :

ولد الإمام أبو حنيفة رحمه الله سنة ثمانين من الهجرة النبوية، وكانت ولادته بمدينة الكُوفَة.

ونشأ فيها وبها قضى جل حياته.

قصة زواج أبيه بأمه :

وهي قصة عجيبة، مثيرة للاستغراب.

يحكى أن ثابت بن النعمان خرج ذات ضحى يسير في مدينة الكوفة، إذ سقطت تفاحة من بستان فأخذها وأكل نصفها، وتذكر ثابت أن التفاحة ليست ملكا له، فدخل البستان وأخبر البستاني بما حدث وقال له:

سامحني وخذ نصف التفاحة الآخر، فقال البستاني :

أنا لا أملك السماحة لأن البستان ليس ملكي وإنما هو ملك سيدي، فتساءل ثابت بن النعمان وأين سيدك حتى أذهب إليه وأستسمحه ؟ فقال البستاني : بينك وبينه مسيرة يوم وليلة، فقال ثابت بن النعمان : لأذهبن إليه مهما كان الطريق بعيدا، فلا يحل لي أن آكل شيئا بدون إذن صاحبه، والنبي ﷺ يقول :

«**كل جسد ينبت من سحت فالنار أولى به**» رواه البيهقي في شعب الإيمان، وأبو نعيم في الحلية عن أبي بكر.

وحملته قدماه إلى صاحب البستان، وبعد أن سلم عليه قال له : سيدي سامحني فيما أكلت من التفاحة، وهذا هو نصفها الآخر، فنظر إليه صاحب البستان في عجب وقال له : لا أسامحك إلا بشرط واحد، فتساءل ثابت بن النعمان، وما هو ؟ قال صاحب البستان : أن تتزوج ابنتي، فقال ثابت بن النعمان في نفسه : وهل هذا شرط ؟ آكل نصف تفاحة ولكي يسامحني أتزوج ابنته ؟ ما هذا ؟ وقبل أن يفيق ثابت بن النعمان من بحر حيرته ودهشته جاءه صوت صاحب البستان :

إليك أوصافها قبل أن تعقد عليها وتدخل بها إنها عمياء، بكماء، عرجاء، حتى لا ترميني بعد ذلك بالغش، غرق ثابت بن النعمان في بحر الحيرة، كيف يتزوج جارية عمياء بكماء عرجاء ؟ كل هذا من أجل أن يسامحه فيما أكل، أليس هناك شروط أخرى أيسر ؟ وجاء صوت أبي الفتاة بغير هذا الشرط لا أسامحك، فقال ثابت بن النعمان : لا حول ولا قوة إلا بالله، قال صاحب البستان : ونسيت أن أخبرك أنها قبيحة، فقد أخبرنا صاحب الحوض المورود ﷺ أن «**من غشنا فليس منا**»[83].

دفن ثابت بن النعمان وجهه بين كفيه وقال في نفسه : ﴿**الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون**﴾.

وجاءه صوت والد الفتاة، ماذا قلت ؟ قال ثابت بن النعمان : قلت : لا إله إلا الله محمد رسول الله.

فقال صاحب البستان : خير القول، ولكن كنت تريد أن ترد علي لكي أحلك من نصف التفاحة، لم تكن حيرة ودهشة ثابت بن النعمان من أن

---

(83) أخرجه الإمام مسلم في كتاب (الإيمان) ج : 2 باب : 43، بهذا اللفظ، وعند الترمذي في السنن بلفظ : من (غش) فليس منا (كتاب البيوع).

يتزوج فتاة قبيحة عمياء صماء وعرجاء، ولكن العجب كل العجب، ما سر هذه البسمة التي ترفرف على شفتي والد الفتاة ؟ وافق ثابت بن النعمان على الزواج من ابنة صاحب البستان فأحله من أكل نصف التفاحة.

كان ثابت بن النعمان يطمع في الثواب والجزاء الأوفى عندما قبل الزواج من فتاة قبيحة عمياء صماء عرجاء، ولم يخطر بباله أن يكون صهر صاحب البستان في يوم ما.

تهيأ ثابت للدخول على زوجة لم يكن يفكر في قبحها، ولكنه كان شارد الذهن يفكر في تلك البسمة التي ما زالت على شفتي صاحب البستان منذ أن قبل أن يكون صهره، هل عجب الرجل من سذاجة ثابت بن النعمان الذي مشى على قدميه يوما وليلة من أجل أن يحله من أكل نصف تفاحة، دخل ثابت بن النعمان حجرة عرسه فوجد جارية توليه ظهرها، فقال وكأنه يحدث نفسه : لماذا لا ألقي عليها السلام ؟ ولكن أباها أخبرني أنها لا تسمع إذا لم ترد علي السلام فسأنال عشر حسنات وترد علي الملائكة، فقال ثابت بن النعمان :

السلام عليكم، فجاءه صوت كصوت البلبل، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، تلفت ثابت بن النعمان حوله،هل ترد الملائكة السلام بصوت مسموع ؟ هل جاءت إحدى الجواري مع هذه الفتاة ؟ ولكنه لم ير في الحجرة إلا زوجه التي توليه ظهرها، لماذا لا يعيد الكرة مرة أخرى؟ لكن ماذا يقول؟ يلقى السلام مرة أخرى ؟ وقبل أن يقول :

السلام عليكم، جاء صوت البلبل المغرد، هل صليت العشاء ؟ تلفت ثابت بن النعمان حوله إنها هي التي تتكلم، ولكن أباها أخبره أنها لا تسمع ولا تتكلم، التفتت إليه فوقعت عيناه على وجه كأنه قطعة قمر ليلة التمام فقال في دهش: لقد أخبرني أبوك أنك... فقالت مكملة : أنني

قبيحة عمياء بكماء وقعيدة، وهبت واقفة، إذن فهي ليست مقعدة ثم مدت يدها نحوه إنها ترى وليست عمياء، تساءل ثابت بن النعمان، لماذا زعم والدك أنك... ؟ قالت :

لقد صدق أبي، فقال ثابت بن النعمان : كيف ؟ قالت : لأنني عمياء أغض بصري عن محارم الله، بكماء لا أتكلم ولا أجلس في مجالس الغيبة والنميمة واللغو، وقعيدة لا تمشي قدماي إلا في طاعة الله عز وجل، فهز ثابت بن النعمان رأسه وانفرجت شفتاه عن بسمة غطت وجهه. لقد عرف الآن سر بسمة والدها[84].

طلبه للعلم :

لم يكن الإمام أبو حنيفة متفرغا للعلم منذ صغره كما تفرغ الأئمة الآخرون كمالك والشافعي وأحمد، فقد طلبوا العلم في الصغر، لكن أبا حنيفة كان مهتما منذ صغره بالتجارة والتردد إلى الأسواق، وظل يتاجر طيلة حياته وكان بزازا يتاجر في الخز- وهو نوع من الثياب - وكان ماهرا في التجارة.

وله دكان معروف بالكوفة، وسع الله عليه بسبب هذه التجارة، وما ورثه من أبيه، فكان يلبس الثياب الفاخرة، وكان ينفق من ماله على طلبة العلم وعلى الفقراء.

قال الفضيل بن عياض : كان أبو حنيفة رجلا فقيها معروفا بالفقه، مشهورا بالورع، واسع المال، معروفا بالإفضال على كل من يطيف به، صبورا على تعليم العلم بالليل والنهار، حسن الليل، كثير الصمت، قليل الكلام، حتى ترد المسألة في حلال أو حرام، فكان يحسن أن يدل على الحق، هاربا من مال السلطان[85].

---

(84) الأئمة الأربعة، لعبد العزيز الشناوي، ص : 5.

(85) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

ثم تحول من التجارة إلى طلب العلم والتبحر فيه، والذي جعله يقبل على طلب العلم هو الإمام الشعبي، فقد نظر إليه فوجده ذا فطنة عالية، فحبب إليه طلب العلم، ونصحه في ذلك، يحدث الإمام أبو حنيفة عن ذلك فيقول :

«مررت يوما على الشعبي وهو جالس فدعاني، فقال لي : إلى من تختلف ؟ قلت : أختلف إلى السوق، قال: لم أعن الاختلاف إلى السوق، عنيت الاختلاف إلى العلماء، فقلت له: أنا قليل الاختلاف إليهم، فقال لي: لا تغفل، وعليك النظر في العلم ومجالسة العلماء فإني أرى فيك يقظة وحركة».

يقول : فوقع في قلبي من قوله، فتركت الاختلاف إلى السوق، وأخذت في طلب العلم فنفعني الله به.

سبب اشتغاله بالفقه :

ورد أن أبا حنيفة كان في بداية أمره يهتم بعلم الكلام ويحبه ليناظر به رءوس الخوارج والمعتزلة، وكان ذات يوم في مسجد الكوفة، فجاءته امرأة فسألته عن مسألة تتعلق بالطلاق فقال لها : اذهبي إلى حماد بن أبي سليمان فإنه يعرف ثم هات الجواب، فجاءته بالجواب فوقع في نفسه الفقه، فأقبل على حماد، وصحبه عشر سنين، وفي رواية : ثماني عشرة سنة[86].

يحكي هذا عن نفسه فيقول : كنت أنظر في علم الكلام حتى بلغت مبلغا يشار إلي فيه بالأصابع، وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان فجاءتني امرأة يوما فقالت لي : رجل له امرأة أمة أراد أن يطلقها للسنة، كم يطلقها ؟ فلم أدر ما أقول، فأمرتها أن تسأل حمادا ثم ترجع

(86) انظر تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

تخبرني فسألته فقال : يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج، فرجعت فأخبرتني، فقلت :

لا حاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي فجلست إلى حماد، فكنت أسمع مسائله، فأحفظ قوله، ثم يعيدها من الغد فأحفظها، ويخطئ أصحابه فقال : لا يجلس في صدر الحلقة بحذائي غير أبي حنيفة، فصحبته عشر سنين..[87].

شيوخه :

تلقى أبو حنيفة العلم على يد شيوخ كبار، وأساتذة أخيار، منهم عطاء ابن أبي رباح، وهو أكبر أشياخه وأفضلهم، قال فيه : ما رأيت أفضل من عطاء ابن أبي رباح.

ومن كبار شيوخه الذين تفقه على أيديهم : حماد بن أبي سليمان، وهو من الفقهاء الكبار، انتهت إليه في عصره رئاسة الفقه بالعراق، وقد لزمه ثماني عشرة سنة.

وعامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، وهشام بن عروة، وسفيان الثوري، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس، وابن شهاب الزهري، ونافع مولى ابن عمر، وغيرهم[88].

ورد أن أبا حنيفة زار الخليفة المنصور العباسي، وكان عنده عيسى بن موسى، فقال للمنصور : هذا عالم الدنيا اليوم.

---

(87) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي ، جـ : 6 ص : 529 (ترجمة الإمام أبي حنيفة). وتاريخ بغداد، ج : 13.

(88) انظر سير أعلام النبلاء ج : 6 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

فقال المنصور يا نعمان عمن أخذت العلم ؟ قال عن أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب علي عن علي، وعن أصحاب عبد الله بن عباس عن عبد الله، وما كان في وقت ابن عباس على وجه الأرض أعلم منه، فقال المنصور (يعني معجبا) : استوثقت لنفسك[89].

وكان رحمه الله، وفيا لشيوخه وأساتذته بارا بهم.

قال عن شيخه حماد بن أبي سليمان : ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي، وإني لأستغفر لمن تعلمت منه علما، أو علمته علما[90].

وقال عنه أيضا : ما مددت رجلي نحو دار حماد إجلالا له، وكان بين داري وداره سبع سكك.

تلاميذه :

أكرم الإمام أبو حنيفة بتلاميذ نجباء أوفياء، اعتنوا بمذهبه اعتناء كبيرا، وإليهم يرجع الفضل في نشره، وبقائه شامخا إلى اليوم، وعلى رأسهم أبو يوسف، ومحمد بن الحسن، فهم الذين نشروا مذهبه شرقا وغربا، وألفوا في ذلك كتبا فأصّلوا وفصّلوا وبينوا وهذبوا ونقحوا.

من تلاميذه : ابنه حماد الذي كان على جانب كبير من الفقه، والعلم والدين، والورع والصلاح .

ومن تلاميذه : أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري الكوفي، الذي يعتبر أجل أصحابه حتى قال فيه طلحة بن محمد : ... أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة، وأملى المسائل ونشرها، وبث علم أبي حنيفة في أقطار الأرض[91].

---

(89) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج : 13.

(90) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

(91) انظر وفيات الأعيان، ج : 3 (ترجمة أبي يوسف).

وقال عنه عمار ابن أبي مالك : ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف، لو لا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة، ولا محمد ابن أبي ليلى، ولكنه نشر قولهما وبث علمهما[92].

وهو الذي تولى وظيفة (قاضي القضاة) ببغداد، وذلك في عهد العباسيين و لم تعرف هذه الوظيفة قبل عهدهم، وهو أول من لقب بهذا اللقب، ويقال : إنه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة التي هم عليها في هذا الزمان، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئا واحدا لا يتميز أحد عن أحد بلباسه.

وكان فقيرا في أول أمره فاضطر أن يعمل بيديه، وكانت له رغبة في طلب العلم، فأعانه عليها أبو حنيفة بالمال والرعاية، وله في ذلك قصة[93].

ومحمد بن الحسن الشيباني، وهو من كبار تلاميذ أبي حنيفة، تفقه عليه، وعلى أبي يوسف، ثم رحل إلى المدينة المنورة فقرأ الموطأ على مالك، وهو الذي يرجع له الفضل في استمرار مذهب أبي حنيفة، فأبو يوسف وإن كان هو خليفة أبي حنيفة، فإن محمد بن الحسن يعتبر بحق المؤسس الثاني لهذا المذهب، فعلى مؤلفاته اعتمد الحنفية، وأصبحت هي المراجع الأصلية والمستند لمذهب أبي حنيفة.

قال عنه الإمام الشافعي : ما رأيت سمينا ذكيا إلا محمد بن الحسن[94].

إلى غير ذلك من التلاميذ الذين تتلمذوا على يديه، وصاروا أعلاما في المذهب الحنفي.

---

(92) وفيات الأعيان، ج : 3 (ترجمة أبي يوسف).
(93) انظر وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج : 3 (ترجمة أبي يوسف). والبداية والنهاية، لابن كثير ج : 7 (أحداث سنة ثنتين وثمانين ومائة).
(94) وفيات الأعيان، ج : 2 (ترجمة محمد بن الحسن).

انتشار مذهبه، وأتباعه :

مذهب أبي حنيفة هو أول مذهب فقهي إسلامي من المذاهب المشهورة، وهو أوسع المذاهب من حيث الانتشار.

قال عنه فيلسوف التاريخ الإسلامي العلامة ابن خلدون: فأما أهل العراق، فإمامهم الذي استقرت عنده مذاهبهم، أبو حنيفة النعمان بن ثابت، ومقامه في الفقه لا يُلحق، شهد له بذلك أهل جلدته، وخصوصا مالك والشافعي إلى أن قال: وأما أبو حنيفة، فقلده اليوم أهل العراق، ومسلمة الهند، والصين، وما وراء النهر، وبلاد العجم كلها لما كان مذهبه أخص بالعراق ودار السلام، وكان تلاميذه صحابةَ الخلفاء من بني العباس، فكثرت تآليفهم، ومناظراتهم مع الشافعية، وحسنت مباحثهم في الخلافيات، وجاءوا منها بعلم مستظرف، وأنظار غريبة، وهي بين أيدي الناس، وبالمغرب منها شيء قليل، نقله إليه القاضي ابن العربي، وأبو الوليد الباجي، في رحلتيهما[95].

وقال القاضي عياض : وغلب مذهب أبي حنيفة على الكوفة والعراق، وما وراء النهر، وكثير من بلاد خراسان إلى وقتنا، وظهر بافريقية ظهورا كثيرا إلى قريب من أربعمائة عام، فانقطع منها، ودخل منه شيء ما وراءها من المغرب قديما بجزيرة الأندلس وبمدينة فاس[96].

ثناء العلماء عليه :

أثنى عليه العلماء ثناء حسنا، قال عنه عبد الله بن المبارك : لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة، وسفيان الثوري، لكنت كسائر الناس.

---

(95) مقدمة ابن خلدون، ص : 495 و497.

(96) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 31.

وقال أيضا : دخلت الكوفة فسألت عن أفقه أهلها فقيل لي :

أبو حنيفة، ثم سألت عن أزهد أهلها فقيل: أبو حنيفة، ثم سألت عن أورع أهلها فقيل : أبو حنيفة.

وقال عبد الله بن داود آلحريبي : ينبغي للناس أن يدعوا في صلاتهم لأبي حنيفة لحفظه الفقه والسنن عليهم.

وقال سفيان الثوري، وعبد الله بن المبارك : كان أبو حنيفة أفقه أهل الأرض في زمانه.

وقال أبو نعيم : كان صاحب غوص في المسائل.

وقال الشافعي : من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، ومن أراد السير فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان.

وقال فيه يحيى بن معين: كان ثقة، وكان من أهل الصدق، ولم يتهم بالكذب.

قيل لمالك : هل رأيت أبا حنيفة، قال : نعم، رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته.

وكان يحيى بن سعيد القطان يقول : لا نكذب الله، ما سمعنا أحسن من رأي أبي حنيفة، وقد أخذنا بأكثر أقواله.

وقال زفر بن الهذيل وهو أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة : جالست أبا حنيفة عشرين سنة، فلم أر أحدا أنصح للناس منه، ولا أشفق عليهم منه.

وقال عنه الذهبي : عني بطلب الآثار وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق والرأي وغوامضه فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك.

وقال أيضا : الإمامة في الفقه ودقائقه مسلمة إلى هذا الإمام، وهذا أمر لاشك فيه

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل[97].

وقال يزيد بن هارون : كتبت عن ألف شيخ، حملت عنهم العلم، فما رأيت فيهم أشد ورعا من أبي حنيفة، ولا أحفظ للسانه منهم.

وقال أبو زكرياء السَّلماسي : أما أبو حنيفة فله في الدين المراتب الشريفة، والمناصب المنيفة، سراج في الظلمة وهاج، وبحر بالحكم عجَّاج، سيد الفقهاء في عصره، ورأس العلماء في مصره، له البيان في علم الشرع والدين، والحظ الوافر من الورع المتين، والإشارات الدقيقة في حق اليقين، مهد ببيانه قواعد الإسلام، وأحكم بتبيانه شرائع الحلال والحرام، وصار قدوة الأئمة الأعلام، سبق الكافة منهم إلى تقرير القياس والكلام، وغدا إماما تعقد عليه الخناصر، ويشير إليه الأكابر والأصاغر، انتشر مذهبه في الآفاق، وعُد من الأفراد باتفاق، فضله وافر، ودينه ثابت، وعَلَمُه في مراده للمجد ثابت، اسمه النعمان وأبوه ثابت[98].

وقال عبد الله بن المبارك : كان أبو حنيفة آية، فسأله أحد الأعداء في الخير أم في الشر ؟ فقال : اسكت يا هذا فإنه يقال : آية في الخير وغاية في الشر، ثم تلا قوله تعالى : ﴿**وجعلنا ابن مريم وأمه آية**﴾ [المؤمنون الآية : 51]. وسمع رجلا ينتقص أبا حنيفة فقال له :

يا ناطح الجبل العالي ليكلمه أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

كما قيل في هذا المعنى :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يَضِرْها وأوهى قرنَه الوعلُ

(97) انظر سير أعلام النبلاء، للإمام للذهبي، جـ : 6 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).
(98) منازل الأئمة الأربعة (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

جاء في الحديث : «**لو كان العلم عند الثريا لتناوله رجال من أبناء فارس**».

قال الإمام السيوطي : هذا أصل صحيح يعتمد عليه في البشارة بأبي حنيفة[99].

وهذا الحديث في فضل سلمان الفارسي رضي الله عنه وأمثاله من أبناء فارس[100].

روي أن أبا حنيفة رأى في المنام كأنه ينبش في قبر رسول الله ﷺ فبعث من سأل ابن سيرين، فقال ابن سيرين : صاحب هذه الرؤيا يثور علما لم يسبقه إليه أحد قبله[101].

كتاب الفقه الأكبر

يرى طائفة من العلماء أن أبا حنيفة لم يؤلف كتبا في مذهبه، وطائفة تنسب إليه كتاب : الفقه الأكبر.

قال القطان : ينسب إلى أبي حنيفة (الفقه الأكبر) وأنه حوى ستين ألف مسألة أو أكثر، و لم تصح هذه النسبة، وإنما قيل : إنه من تأليف أصحابه، وقد نسب إليه في العقيدة كذلك : الفقه الأكبر، وطبع في حيدرآباد الدكن بالهند سنة 1321هـ، وهو عقيدة سلفية، لا تتجاوز عدة صفحات، و لم تصح نسبته إليه.

وينسب إلى أبي حنيفة مسند في الحديث، قال ابن حجر العسقلاني في كتاب : «تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة» : أما مسند أبي حنيفة

---

(99) انظر (أوجز المسالك، إلى موطأ مالك) للكاندهلوي، ج : 1 ص : 175 (الإمام الأعظم أبو حنيفة).

(100) انظر فتح الباري، ج : 9 ص : 634 كتاب : (التفسير). وتفسير ابن كثير، سورة الجمعة الآية : 3.

(101) وفيات الأعيان، ج : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

فليس من جمعه، والموجود من حديث أبي حنيفة إنما هو كتاب الآثار التي رواها محمد بن الحسن عنه، ويوجد في تصانيف محمد بن الحسن وأبي يوسف قبله من حديث أبي حنيفة أشياء أخرى، وذكر صاحب «كشف الظنون» مسند الإمام الأعظم وذكر رواته، وأن الذي اعتنى بجمع مسانيده هو : أبو المؤيد محمد بن محمود الخوارزمي المتوفى سنة 165 هـ، وقد طبع هذا المسند في مصر سنة 1326هـ بما ينفي الدعوة القائلة : إن أبا حنيفة لم يصح عنده أو لم يبْن مذهبه إلا على سبعة عشر حديثا[102].

وقال عبد القاهر : فإن أبا حنيفة له كتاب في الرد على القدرية سماه : (الفقه الأكبر) وله رسالة أملاها في نصرة قول أهل السنة : إن الاستطاعة مع الفعل، ولكنه قال : إنها تصلح للضدين وعلى هذا قوم من أصحابنا[103].

الأصول التي بنى عليها مذهبه :

بنى الإمام أبو حنيفة مذهبه على أصول سبعة، وهي على الشكل التالي:

1 ـ الكتاب.

2 ـ السنة :

وكان رحمه الله من أشد الفقهاء تحريا في قبولها والتثبت منها، فقد لا يقبل الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا رواه جماعة عن جماعة، أو اتفق فقهاء الأمصار على العمل به، ويتوقف في خبر الآحاد إذا لم يكن مشهورا، ويشترط فيه شروطا، مما أدى إلى اتهامه بقلة بضاعته في السنة ورده لكثير من صحيحها.

---

(102) تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 279.

(103) الفَرْق بين الفِرَق، لعبد القاهر البغدادي الإسفرائيني، (الفصل السادس) ص : 363.

قال ابن خلدون : ... والإمام أبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي، وقلت من أجلها روايته فقل حديثه، لا أنه ترك رواية الحديث متعمدا فحاشاه من ذلك، ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا[104].

3 ـ القياس :

وكان رحمه الله يقدم عليه الحديث الضعيف وآثار الصحابة رضي الله عنهم.

قال ابن القيم رحمه الله : وأصحاب أبي حنيفة رحمه الله مجمعون على أن مذهب أبي حنيفة أن ضعيف الحديث عنده أولى من القياس والرأي، وعلى ذلك بنى مذهبه، كما قدم حديث القهقهة مع ضعفه على القياس والرأي، وقدم حديث الوضوء بنبيذ التمر في السفر مع ضعفه على الرأي والقياس، ومنع قطع السارق بسرقة أقل من عشرة دراهم والحديث فيه ضعيف، وجعل أكثر الحيض عشرة أيام، والحديث فيه ضعيف، وشرط في إقامة الجمعة المصر والحديث فيه كذلك، وترك القياس المحض في مسائل الآبار لآثار فيها غير مرفوعة، فتقديم الحديث الضعيف وآثار الصحابة على القياس والرأي قوله وقول الإمام أحمد، وليس المراد بالحديث الضعيف في اصطلاح السلف هو الضعيف في اصطلاح المتأخرين، بل ما يسميه المتأخرون حسنا يسميه المتقدمون ضعيفا كما تقدم بيانه[105].

والإمام أبو حنيفة يلقب بإمام أهل الرأي وشيخ فقهاء القياس، وذلك لما عرف عنه من استعمال الرأي والقياس في المسائل الشرعية التي لا نص فيها من كتاب ولا سنة.

---

(104) مقدمة ابن خلدون، ص : 493.

(105) اعلام الموقعين جـ : 1 ص : 61.

وأبو حنيفة إن استعمل القياس فهو أهل لذلك لأن لـه مؤهلات تؤهله للاجتهاد واستعمال القياس المقبول، ولذلك كان يعيب على من يستعمل القياس مع عدم أهليته لذلك، قال وكيع : سـمعت أبا حنيفة يقول : البول في المسجد أحسن من بعض القياس[106].

وورد عن علي بن عاصم قال : دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام يأخذ من شعره، فقال للحجام : تتبع مواضع البياض، قال الحجام : لا، قال : و لم ؟ قال لأنه يكثر، قال : تتبع مواضع السواد لعله يكثر. وحكيت لشريك هذه الحكاية فضحك وقال : لو ترك القياس تركه مع الحجام[107].

4 ـ الإجماع.

5 ـ أقوال الصحابة.

6 ـ الاستحسان.

7 ـ العرف، إذا لم يخالف نصا.

8 ـ الحيل الشرعية :

كثير من الباحثين والدارسين نسبوا إلى أبي حنيفة العمل بالحيل الشرعية، وعدوها أصلا من أصول مذهبه.

وقد تكلم ابن القيم رحمه الله عن الحيل وشنع على من توسع فيها، وقال : والمتأخرون أحدثوا حيلا لم يصح القول بها عن أحد من الأئمة، ونسبوها إلى الأئمة وهم مخطئون في نسبتها إليهم، ولهم مع الأئمة موقف بين يدي الله...[108].

---

(106) سير أعلام النبلاء، للذهبي ج : 6 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

(107) وفيات الأعيان، جـ : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة) وتاريخ بغداد ج : 13.

(108) انظر اعلام الموقعين، ج : 3، ص : 218.

وجمهور الفقهاء ولا سيما المالكية والحنابلة لا يسوغون الحيل بأي صورة من الصور، لأنهم يقولون بسد الذرائع، وهو مناقض للحيل تمام المناقضة[109].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : فأبعد الناس عن القول بها (الحيل) مالك وأحمد، وقد سئل أحمد عن المروزي وهو عنده، و لم يرد أن يخرج إلى السائل، فوضع أحمد أصبعه في كفه، وقال: ليس المروزي هاهنا، وما ذا يصنع المروزي هاهنا[110].

وتسمى بـ (الحيل الشرعية) أو(المخارج من المضايق).

وقد صنف فيها أبو يوسف (تلميذ أبي حنيفة) كتابا.

والأصل فيها عند من يقول بها قوله تعالى : ﴿**وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث**﴾ [سورة : ص الآية : 43].

وقد عمل بها النبي ﷺ في حق الضعيف الذي زنى، كما في السنن، من حديث أبي أمامة بن سهل رضي الله عنه.

والعلماء مختلفون فيها بين مثبت لها مطلقا، وناف لها مطلقا، ومثبت لها بقيود[111].

من لطائف حيل أبي حنيفة :

ما ذكره ابن القيم حيث قال : المثال الخامس والثمانون ما ذكر في مناقب أبي حنيفة رحمه الله تعالى أن رجلا أتاه بالليل فقال : أدركني قبل

---

(109) تاريخ التشريع الإسلامي، لمناع القطان، ص : 274.

(110) إغاثة اللهفان ج : 1، ص : 319.

(111) انظر فتح الباري (كتاب الحيل) ج : 14 ص : 341 واعلام الموقعين، وإغاثة اللهفان،لابن القيم. والموافقات، للشاطبي، ج : 2 ص : 289.

الفجر وإلا طلقت امرأتي فقال : وما ذاك ؟ قال : تركت الليلة كلامي، فقلت لها : إن طلع الفجر و لم تكلميني فأنت طالق ثلاثا، وقد توسلت إليها بكل أمر أن تكلمني فلم تفعل، فقال لـه : اذهب فمر مؤذن المسجد أن ينزل فيؤذن قبل الفجر، فَلَعلَّها إذا سمعته أن تكلمك، واذهب إليها وناشدها أن تكلمك قبل أن يؤذن المؤذن، ففعل الرجل وجلس يناشدها، وأذن المؤذن فقالت : قد طلع الفجر وتخلصت منك، فقال : قد كلمتني قبل الفجر وتخلصت من اليمين وهذا من أحسن الحيل[112].

وسئل رحمه الله عن أخوين تزوجا أختين، فزفت امرأة كل واحد منهما إلى الآخر، فوطئها، و لم يعلموا بذلك حتى أصبحوا، فقيل له : ما الحيلة في ذلك ؟ فقال : أكل واحد منهما راض بالتي دخل بها، قالوا : نعم، فقال : ليطلق كل واحد منهما امرأته طلقة، ففعلا، فقال : ليتزوج كل واحد منهما المرأة التي وطئها، فطابت أنفسهما[113].

ومنها : أن رجلا حلف على زوجته وقد رآها على السلم، فقال لها : أنت طالق ثلاثا إن نزلت، وطالق ثلاثا إن صعدت، فأفتاه أبو حنيفة بأن تبقى على السلم ويحمله جماعة.

ومنها أيضا : أن آخر حلف ليأتين زوجته في نهار رمضان، فأفتاه أبو حنيفة بأن يسافر بها في نهار رمضان[114].

عبادته وورعه :

كـان أبـو حنيفـة رحمه الله ورعا تقيا وقورا هيوبا حليما، كثير الإنفاق، حسن الـهيئة كثير التعطر، كما كان صاحب علم وزهد

(112) اعلام الموقعين ج : 4، ص : 13.
(113) إغاثة اللهفان، من مصايد الشيطان، لابن القيم، ج : 2، ص : 21.
(114) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، لمناع القطان، ص : 275.

وخشية من الله، يكثر من قيام الليل، ويقرأ القران حتى يرحمه جيرانه، ولكثرة قيامه كان يسمى «الوتد» قام ليلة وهو يردد قوله تعالى : ﴿**بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر**﴾ [القمر الآية : 46].

ويبكي ويتضرع حتى طلع الفجر.

وتواترت الأخبار عنه أنه كان يكثر من القيام والصيام، حتى قال مغسله الحسن بن عمارة بعد الفراغ من غسله : رحمك الله وغفر لك، لم تفطر منذ ثلاثين سنة، و لم تتوسد يمينك في الليل منذ أربعين سنة، وقد أتعبت من بعدك، وفضحت القراء[115].

مكث أربعين سنة يصلي الصبح بوضوء العشاء، وختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعين ألف مرة[116].

ومن ورعه : أنه ترك أكل لحم الغنم سبع سنين، لما فقدت شاة من الكوفة، لأنه سأل عن أكثر ما تعيش فقيل له : سبع سنين[117].

ومن ورعه أيضا : ما ورد عنه أنه أمر شريكه حفص بن عبد الرحمان لما جهزه أن يبين عيبا في ثوب عند بيعه فنسي حفص و لم يعلم من اشتراه، فلما علم به أبو حنيفة تصدق بثمن المتاع كله[118].

سبه أحد الناس بقوله : يا مبتدع يا زنديق، فرد عليه بقوله : غفر الله لك، الله يعلم مني خلاف ذلك، وأني ما عدلت به (ما أشركت) مذ عرفته، ولا أرجو إلا عفوه، ولا أخاف إلا من عقابه.

وقال عن نفسه : لولا الفَرَق من الله تعالى أن يضيع العلم، ما أفتيت أحدا، يكون لهم الهناء وعلي الوزر.

---

(115) انظر وفيات الأعيان، ج : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة) وتاريخ بغداد ج : 13.
(116) البداية والنهاية لابن كثيرج : 7 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).
(117) انظر (الأئمة الأربعة) لأحمد الشرباصي، ص : 65.
(118) انظر تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

تـواضعـه :

من تواضعه رحمه الله، ومن إنصافه أيضا، ما حكـاه عن نفسه من تعلمه بعض مناسك الحج من حلاق، كـان قد أخطـأ فيها، يذكر عنه رحمه الله، أنه نزل بين يدي حلاق في موسم الحج، فقال له الـحجام :

من تكون ؟ فقال لـه : النعمان بن ثابت فقال له الحجام : مارأيت أجهل منك، قال له : ولـم ذلك ؟ قال : لأنـك أمرتني بالعمل قبل أن تساومني، فقال له أبو حنيفة : صدقت، فكم أجرتك ؟ قال له : كذا، قال : فافعل، فلما تهيأ بين يديه، قال له : من يكون الرجل ؟ قال له : ألـم أقل لك : إني النعمان بن ثابت، قال له : لـم أر رجلا أجهل منك، قال : ولـم ذلك ؟ قال : لأن رسول الله ﷺ قال : خير الـمجالس ما استقبل به القبلة، وأنت قد جلست إلى غير القبلة، قال : صدقت، فاستدار نحو القبلة، ثم قال له: اعمل يرحمك الله، قال من ناحية اليمين أبدأ أم من ناحية الشمال، فقال أبو حنيفة : من ناحية اليمين، فقال له الحجام : لـم أر رجلا أجهل منك، قال له : ولـم ذلك ؟ قال : لأن رسول الله ﷺ استحب التيامن في الانتعال، واستحب التياسر في الخلـع، أو ما علمت أن الحِلاق خلع، قال صدقت، ثم مضى عنه وتركه[119].

حكي أنه كان لأبي حنيفة بالكوفة جار إسكاف يعمل نهاره أجمع، حتى إذا جن عليه الليل رجع إلى منزلـه، وقد حمل لحما فطبخه أو سمكـة فيشويها، ثم لا يزال يأكـل ويشرب، حتى إذا دب الشراب فيه غرد بصوت

وهو يـقـول :

أضـاعـوني وأي فتـى أضـاعـوا لـيـوم كـريـهـة وسـداد ثـغـر

(119) فقه السنة، لسيد سابق (كتاب الحج) ص : 523.

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته كل ليلة، وهو يصلي، ففقد صوته، فسأل عنه فقيل : أخذه العَسَس منذ ليال وهو محبوس، فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير، فقال الأمير: ائذنوا له وأقبلوا به راكبا ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط ببغلته، (إجلالا منه واحتراما لأبي حنيفة، الذي يعتبر عالما من علماء المسلمين الذين كانوا يحظون من طرف الخلفاء بكامل التقدير والإكبار والاحترام) فَفَعَل، ولم يزل الأمير يوسع له في مجلسه، قال : ما حاجتك يا أبا حنيفة ؟ فقال لي : جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال يأمر الأمير بتخليته، فقال : نعم وكل من أخذ في تلك الليلة إلى يومنا هذا، فأمر بتخليتهم أجمعين، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشي وراءه، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه، وقال يا فتى : أضعناك؟ فقال : لا بل حفظت ورعيت، جزاك الله خيرا عن حرمة الجوار، ورعاية الحق، وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان عليه[120].

قال رحمه الله حينما قيل له لا يزال هذا المصر بخير ما دمت فيه :

خلت البلاد فسدت غير مسود ومن العَناء تفردي بالسؤدد

قوة ذكائه وسرعة إجابته :

أكرم الإمام أبو حنيفة بسرعة البديهة وبذاكرة قوية، وبقدرة فائقة على المناظرة، فكان إذا طرحت عليه مسألة من المسائل العويصة يجيب عنها بسرعة وبجواب مقنع، ومن ذلك على سبيل المثال :

أن بعض الزنادقة، سألوه عن الدليل على وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني، فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينة في

(120) وفيات الأعيان، ج : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة). وتاريخ بغداد ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

البحر موقرة، فيها أنواع من المتاجر، وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال : ويحكم، هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة، أليس لها صانع، فبهت القوم، ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه[121].

ومنها : أنه دعاه الخليفة أبو جعفر المنصور، وقد وقع بينه وبين زوجته نزاع في التعدد، فسأله عن حكم الشرع في تعدد الزوجات، فأفتاه الإمام أبو حنيفة بإباحة التعدد، وساق له أدلة من الكتاب والسنة في الموضوع، فلما سمع الخليفة ذلك دعا زوجته، فلما حضرت التفت إلى أبي حنيفة، وقال له : ما تقول يا أبا حنيفة في تعدد الزوجات ؟ فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين إن الله أباحه لأهل العدل، فمن لم يعدل أو خاف ألا يعدل : فليس له ذلك، لقول الله تعالى : ﴿**فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة**﴾ [النساء الآية : 3].

ولما رأت زوجة المنصور هذا الموقف الشجاع من أبي حنيفة رحمه الله، أرسلت إليه جارية وهدايا ثمينة، فقال للرسول : أقرئها مني السلام، وقل لها : إنما ناضلت عن ديني، وقمت ذاك المقام لله، لم أُرد بذلك تقربا إلى أحد، ولا التمست به دنيا، ورَدَّ إليها الجارية والهدايا[122].

ومنها : أنه كان عند الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، ومعه الربيع (حاجبه)، وكان الربيع يعادي أبا حنيفة، فأراد الربيع أن يوقع بين أبي حنيفة والخليفة، فقال الربيع : يا أمير المؤمنين إن هذا يخالف جدك ابن عباس، فلا يجيز الاستثناء إلا متصلا باليمين، فلو استثنى بعد يوم أو يومين لم يجز له ذلك، فقال أبو حنيفة : يا أمير المؤمنين، إن الربيع يزعم أنه ليس

(121) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير الآية الواحدة والعشرون من سورة البقرة.
(122) انظر (الأئمة التسعة) لعبد الرحمان الشرقاوي، ص : 82.

لـك فـي رقاب الناس بيعة، فقال الخليفة : كيف ؟ فقال أبو حنيفة : إنهم يحلفون لك على البيعة، ثم يرجعون إلـى منازلهم فيستثنون، فتبطل أيـمانهم، فضحك الخليفة المنصور، وقال للربيع : لا تعرض لأبي حنيفة، فلما خرج أبو حنيفة قال له الربيع : أردت أن تشيط بدمي ؟ قال لا، ولكنك أردت أن تشيط بدمي فخلصتك وخلصت نفسي[123].

ومنها : أن الخليفة لما دعاه إلى القضاء قال : يا أمير المومنين لا أصلح للقضاء فقال له : كذبت، فرد الجواب مسرعا قائلا : قد حكمت علي يا أمير المومنين، فالكذاب لا يصلح للقضاء.

ومنها : أنه جاء إليه رجل فقال : إن ابن أبي ليلى (وكان قاضيا بالكوفة) جلد امرأة مجنونة، قالت لرجل : يا بن الزانيين.

فحدها حدين في المسجد وهي قائمة، فقال : أخطأ من ستة أوجه : الأول أن المجنون لا حد عليه.

الثاني : قولها يا بن الزانيين...

الثالث : أنه حد بغير مطالبة المقذوف.

الرابع : أنه والى بين الحدين.

الخامس : أنه حدها قائمة.

السادس : أنه أقام الحد في المسجد.

قال ابن العربي : وهذا الذي قاله أبو حنيفة بالبديهة، لا يدركه أحد بالروية إلا العلماء[124].

---

(123) نظر وفيات الأعيان، جـ : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة). وتاريخ بغداد، ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

(124) انظر مزيدا من الكلام على هذه الأوجه في أحكام القرآن، للقاضي ابن العربي ج : 4 سورة: (ص) الآية : 19 وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

ومنها : أنه أتاه الضحاك بن قيس الخارجي، وقال له : تب، فقال أبو حنيفة : مم أتوب ؟ قال الخارجي : من قولك بتجويز الحكمين (يعني في الخلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما).

فقال أبو حنيفة : ألا تقبل أن تناظرني في هذا الموضوع ؟ فقبل الخارجي، وهنا قال له أبو حنيفة : فإن اختلفنا فمن يحكم بيني وبينك، قال الضحاك : من شئت، وكان مع الضحاك صاحب له، فقال أبو حنيفة : أترضى بهذا حكما بيني وبينك ؟ قال : نعم، فقال له أبو حنيفة: فأنت قد جوزت التحكيم، فبهت الخارجي ولم يحر جوابا[125].

ومنها : أنه دخل عليه طائفة من الخوارج شاهرين سيوفهم، فقالوا له : يا أبا حنيفة، أفتنا في مسألتين، فإن أجبت جوابا صحيحا نجوت وإلا قتلناك، فقال :

اغمدوا سيوفكم، فإن برؤيتها ينشغل القلب، قالوا : وكيف نغمدها ونحن نحتسب الأجر بإغمادها في رقبتك، قال : اسألوا قالوا : جنازتان بالباب أحدهما رجل شرب خمرا فمات سكران، والأخرى امرأة حملت من الزنا فماتت في ولادتها قبل التوبة، أهما مؤمنان أم كافران ؟ فسألهم من أي الفِرَق كانا ؟ من اليهود ؟ قالوا : لا، قال : من النصارى ؟ قالوا : لا، قال : من المجوس ؟ قالوا: لا، قال : ممن كانا ؟ قالوا : من المسلمين، قال : قد أجبتم قالوا : هما في الجنة أم في النار ؟ قال : أقول فيهما ما قال الخليل عليه الصلاة والسلام فيمن هو شر منهما ﴿**فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم**﴾ [إبراهيم الآية : 38]. وأقول كما قال عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿**إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم**﴾ [المائدة الآية : 120]. فنكسوا رؤوسهم وانصرفوا.

(125) انظر الأئمة الأربعة، لأحمد الشرباصي، ص : 60.

ومنها أيضا : أنه دخل عليه جماعة من الخوارج وهو جالس مع أصحابه في مسجد الكوفة فقال لأصحابه : لا تبرحوا مكانكم فسألهم الخوارج من أنتم؟ فقال أبو حنيفة : نحن مستجيرون، فقال أمير الخوارج: دعوهم وأبلغوهم مأمنهم واقرءوا عليهم القرآن[126].

لأن الله يقول ﴿**وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلم الله ثم أبلغه مأمنه**﴾ [التوبة الآية : 6]. فقام أبو حنيفة وأصحابه حتى دخلوا بيوتهم تحت حراسة الخوارج.

ومنها : أنه كان ذات يوم في مجلس الخليفة أبي جعفر المنصور فقال أبو العباس الطوسي لأصحابه : اليوم أقتل أبا حنيفة، (أُوَرِّطه في مشكلة فيُقْتل) ثم قال يا أبا حنيفة : إن أمير المومنين يأمرنا بضرب أعناق رجال لا ندري من هم، أفيجوز لنا هذا، فقال أبو حنيفة : يا طوسي أمير المومنين يأمر بالحق أم بالباطل، فقال : بالحق، فقال أنفذ الحق حيث كان ولا تسأل عنه، ثم قال بعد ذلك لمن قرب منه : أراد أن يوثقني فربطته[127].

وحكى الحسن بن زياد، قال : دفن رجل مالا في موضع، ثم نسي في أي موضع دفنه، فجاء إلى أبي حنيفة، فشكا إليه، فقال أبو حنيفة : ما هذا فقه فأحتال إليك، ولكن اذهب فصل الليلة، ففعل الرجل، ولم يقم إلا أقل من ربع الليل، حتى ذكر الموضع، فجاء إلى أبي حنيفة، فأخبره، فقال له أبو حنيفة : قد علمت أن الشيطان لا يدعك تصلي، فهلا أتممت ليلتك شكرا لله[128].

---

(126) انظر تاريخ بغداد، ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

(127) وفيات الأعيان ج : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة) وتاريخ بغداد ج : 13 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

(128) وفيات الأعيان، جـ : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

حضر إلى مجلسه جماعة من الملحدين، فقال زعيمهم لأبي حنيفة : إن الشيطان مخلوق من النار، فكيف يعذب بالنار، فأخذ أبو حنيفة طوبة من الأرض وضرب بها رأس زعيم الملحدين ضربة مؤلمة فصرخ مستغيثا، فقال أبو حنيفة : فالإنسان خلق من طين، والطوبة من طين، فلعلك علمت الآن كيف عذب الطين بالطين؟ فنطق زعيم الملحدين بشهادة الحق، وأحجم من جاءوا معه[129].

جاءه رجل يجادله في القدر فقال له : أما علمت أن الناظر في القدر كالناظر في عين الشمس كلما ازداد نظرا ازداد تحيرا.

حكى محمد بن الحسن قال : أتوا أبا حنيفة في امرأة ماتت وفي جوفها ولد يتحرك، فأمرهم فشقوا جوفها واستخرجوا الولد، وكان غلاما فعاش حتى طلب العلم، وكان يتردد إلى مجلس محمد بن الحسن، وسمي ابن أبي حنيفة[130].

بهذا الذكاء العظيم، وهذه القدرة الفائقة على المناظرة، استطاع رحمه الله أن يتخلص من كثير من المواقف الحرجة، وأن يبعد نفسه عن الوقوع في الفخاخ والشباك التي ينصبها له من يتربصون به الدوائر، من أعدائه وخصومه وهو القائل :

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... فدام لي ولهم ما بي وما بهم
قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا ... ومات أكثرنا غيظا بما يجد[131]

وكان رحمه الله يكثر من قول : اللهم من ضاق بنا صدره، فإن قلوبنا قد اتسعت له[132].

---

(129) انظر الأئمة الأربعة، لعبد العزيز الشناوي، ص : 18.
(130) وفيات الأعيان ، ج : 2 (ترجمة محمد بن الحسن).
(131) تاريخ بغداد ج : 13 وتهذيب الأسماء واللغات، ج : 2 ص : 223.
(132) تاريخ بغداد، ج : 13.

ظهور نبوغه في الصغر :

وأوضح دليل على ذلك مسألة «خفض الملحد ورفع الموحد» حكى الخطيب الخوارزمي :

أن ملك الروم أرسل إلى الخليفة مالا جزيلا على يد رسوله، وأمره أن يسأل العلماء عن مسألتين، وقال له : إن هم أجابوك : ابذل لهم المال، وإن لم يجيبوك فاطلب من المسلمين الخراج، فسأل العلماء فلم يأت أحد بما فيه مقنع، وكان أبو حنيفة إذ ذاك صبيا حاضرا مع أبيه، فاستأذنه في جواب الرومي، فلم يأذن له، فقام واستأذن من الخليفة فأذن له، وكان الرومي على المنبر، فقال أبو حنيفة للرومي : أسائل أنت أم مجيب ؟ قال : سائل، قال : انزل، مكانك الأرض ومكاني المنبر، فنزل الرومي وصعد أبو حنيفة على المنبر، فقال : سل، فقال :

أي شيء كان قبل الله تعالى ؟ قال : هل تعرف العدد ؟ قال : نعم، قال: ما قبل الواحد ؟ قال : هو الأول ليس قبله شيء، قال : إذا لم يكن قبل الواحد المجازي اللفظ شيء، فكيف يكون قبل الواحد الحقيقي ؟.

قال الرومي : بما ذا يشتغل الله تعالى فأنتم تقرءون في كتابكم : ﴿**كل يوم هو في شأن**﴾ [الرحمان : 27]. قال : إذا كان على المنبر مشبه ملحد مثلك أنزله، وإذا كان على الأرض موحد مثلي رفعه، وكل يوم هو في شأن، فترك المال وعاد إلى الروم.

محنة الإمام أبي حنيفة :

الابتلاء سنة من سنن الله في خلقه، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، ويكاد الباحث في سير الأئمة والعلماء لا يعثر على إمام لم يضطهد أو يسجن أو يعذب، وقد نزل بالأئمة الأربعة نصيب وافر من

البلاء، فما كان منهم إلا الصبر والثبات، وبذلك نالوا الإمامة في الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

(بِالصَّبْرِ والْيَقِين تُنَال الإمامة في الدين)[133].

ثُمَّ تَلاَ قَوْلَه تَعَالى : ﴿**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بئاياتنا يوقنون**﴾ [السجدة : 24].

فهذا الإمام أبو حنيفة أحد الأئمة الأربعة كانت له جرأة في الصدع بالحق، وقمع الباطل، شأنه في ذلك شأن أمثاله من العلماء الربانيين، والأئمة الصادقين، وكانت هذه الجرأة سببا في ما ناله من الأذى.

فقد ورد : أن ابن هُبيرة «وكان عامل مروان على العراق في زمن بني أمية» دعاه إلي أن يلي القضاء بالكوفة، فامتنع من ذلك، فضربه وسجنه حتى ساءت حاله، ووهنت قوته من جراء هذا الضرب الذي لا مسوغ له.

وكانت هذه المحنة سببا في خروجه بأهله إلى مكة المكرمة، فمكث بها ست سنوات، وبعد ما انهارت دولة الأمويين، واستتب الأمر للعباسيين انتهز هذه الفرصة، وعاد إلى الكوفة، فدعي مرة أخرى لتولي منصب القضاء، وهذه المرة من طرف الخليفة العباسي : أبي جعفر المنصور فأبى رحمه الله فتكررت محنته، فضرب وسجن.

وقصة محنته وأسبابها مبسوطة في المطولات.

ولما طلب منه أبو جعفر المنصور أن يلي القضاء رفض فحلف عليه المنصور أن يفعل فحلف أبو حنيفة ألا يفعل، وكان الربيع (حاجب المنصور) حاضرا فقال لأبي حنيفة : ألا ترى أمير المؤمنين يحلف وتحلف، فقال أبو حنيفة : أمير المؤمنين على كفارة أيمانه أقدر مني على كفارة أيماني.

---

(133) تَفْسِير الإمام ابن كثير، سُورَة (السَّجْدَة) الآية : 24. وَمَدَارِج السَّالكين، لابن القيم ج :2، ص : 149.

وحين رآه المنصور يرفض القضاء ظن أنه رفضه عن موقف سياسي، فقال له : إنك لا تقبل تولي القضاء، فلم لا تقبل صلتي ؟ ففاجأه بهذا الجواب : ما وصلني أمير المؤمنين من ماله بشيء فرددته، ولو وصلني بذلك لقبلته، وإنما وصلني من بيت مال المسلمين، ولا حق لي في بيت مالهم، إني لست ممن يقاتل من ورائهم فآخذ ما يأخذ المقاتل، ولست من ولدانهم فآخذ ما يأخذ الولدان، ولست من فقرائهم فآخذ ما يأخذ الفقراء.

وفاة الإمام أبي حنيفة :

توفي رحمه الله سنة خمسين ومائة من الهجرة النبوية على الأصح.

قيل : توفي في اليوم الذي ولد فيه الشافعي[134].

وله سبعون سنة، ودفن ببغداد في مقبرة «الخيزران» وقبره هناك ظاهر معروف، وصلي عليه ست مرات لكثرة الزحام[135].

قال ابن عبد البر رحمه الله : حدثنا خلف بن القاسم قال : حدثنا يحيى بن الربيع قال : حدثنا محمد بن حماد المصيصي قال : حدثنا إبراهيم بن واقد قال : حدثنا المطلب بن زياد قال : حدثني جعفر بن الحسن إمامنا قال:

رأيت أبا حنيفة في النوم فقلت : ما فعل الله بك يا أبا حنيفة ؟ قال: غفر لي، فقلت له بالعلم ؟ قال : هيهات، ما أضر الفتيا على أهلها، فقلت فبم؟ قال : بقول الناس في ما لم يعلم الله مني[136].

قال الإمام الذهبي : «توفي شهيدا مسقيّا»[137].

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

---

(134) وفيات الأعيان، ج : 3 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).
(135) البداية والنهاية، لابن كثير ج : 7 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).
(136) جامع بيان العلم وفضله، ج : 2، ص 401 و222.
(137) سير أعلام النبلاء، ج : 6 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

الإمام مالك إمام دار الهجرة (93 - 179 هـ)

نسبه :

هو الإمام الفقيه المحدث أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي[138] من قبيلة ذي أصبح اليمنية.

إمام دار الهجرة (المدينة المنورة) وعالم المدينة، أحد الفقهاء الأربعة، أصحاب المذاهب المتبعة، كان إماما في الفقه، وإماما في الحديث، وهو من سادة أتباع التابعين.

صاحب المذهب الذي يتشرف المغاربة بالانتساب إليه، والتمذهب به عدة قرون.

مولده ونشأته :

ولد الإمام مالك رحمه الله سنة ثلاث وتسعين من الهجرة النبوية على أشهر الأقوال، وقيل : سنة أربع وتسعين، وقيل : غير ذلك، وتقدمت عليه ولادة أبي حنيفة بثلاث عشرة سنة.

وكانت ولادته بالمدينة المنورة، ونشأ فيها، وتعلم فيها، واستقر فيها إلى أن مات رحمه الله.

وكان أنس والد الإمام فقيها، وكان جده مالك من التابعين أحد الأربعة الذين حملوا عثمان إلى قبره ليلا ودفنوه في البقيع، وأبوه أبو عامر

---

(138) بفتح الهمزة وسكون الصاد المهملة، وفتح الباء الموحدة وبعدها حاء مهملة، كما في الوفيات ج : 2 ص : 300 (ترجمة الإمام مالك).

صحابي شهد المغازي كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بدرا[139].

حرصه على طلب العلم :

أكرم الإمام مالك بأبوين فاضلين، كانا السبب في تعليمه، فهذه أمه الصالحة العاقلة، كانت تأخذه وتُدْنيه وتطيبه، وتلبسه لباس العلماء (تشجيعا له) وترسله ليتعلم.

قال مالك رحمه الله : كانت أمي تُعمِّمني وتقول لي : اذهب إلى ربيعة فتعلم من أدبه قبل علمه[140].

يروى عنه أنه قال : كان لي أخ في سن ابن شهاب، فألقى أبي يوما علينا مسألة فأصاب أخي وأخطأت، فقال لي أبي : (يعني موبخا) ألهتك الحمام عن طلب العلم، (وكان يعتني بتربية الحمام) فغضبت وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين. وفي رواية ثمان سنين لم أخلطه بغيره، وكنت أجعل في كفي تمرا وأناوله صبيانه، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا : مشغول[141].

وقال ابن هرمز يوما لجاريته : من بالباب ؟ فلم تر إلا مالكا فرجعت فقالت : ما ثم إلا ذك الأشقر، (تعني مالكا) فقال لها :

ادعيه فذاك عالم الناس[142].

---

(139) انظر ترتيب المدارك، جـ : 1 ص : 47 وحاشية الدسوقي على شرح أحمد الدردير، ج : 1 ص : 33.

(140) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 54.

(141) انظر ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 55.

(142) ترتيب المدارك، جـ : 1 ص : 55.

وقال : مالك كنت آتي ابن هرمز بكرة، فما أخرج من بيته حتى الليل، وكان من الفقهاء.

وقال أيضا : كنت آتي نافعا (مولى ابن عمر) نصف النهار وما تظلني الشجرة من الشمس إلى خروجه، فإذا خرج أدعه ساعة كأني لم أرده، ثم أتعرض له فأسلم عليه، وأدعه حتى إذا دخل البلاط أقول له : كيف قال ابن عمر في كذا وكذا؟ فيجيبني ثم أحبس عنه، وكانت فيه حدة[143].

وقال : لن ينال هذا الأمر (العلم) حتى يذاق فيه طعم الفقر[144].

وقال ابن القاسم : أفضى بمالك طلب العلم إلى أن نقض سقف بيته، فباع خشبه، ثم مالت عليه الدنيا بعد[145].

ورد أن الإمام مالكا رحمه الله كان جالسا في المسجد النبوي فجاءه رجل فقال : أيكم مالك ؟ فقالوا : هذا، فسلم عليه واعتنقه وقبل بين عينيه وضمه إلى صدره وقال : والله لقد رأيت البارحة رسول الله ﷺ جالسا هنا، فقال :

هاتوا مالكا، فأتي بك ترتعد فرائصك، فقال : ليس عليك بأس يا أبا عبد الله، وكنّاك، وقال : اجلس فجلست، فقال افتح حجرك، ففتحت فملأه مسكا منثورا، وقال : ضمه إليك وبثه في أمتي، فبكى مالك، وقال:

الرؤيا تسر ولا تغر، وإن صدقت رؤياك فهو العلم الذي أودعني الله[146].

---

(143) ترتيب المدارك، جـ : 1 ص : 55.
(144) ترتيب المدارك، جـ : 100/1.
(145) ترتيب المدارك، ج : 1ص : 54.
(146) انظر ترتيب المدارك، جـ : 1 ص : 132. وحلية الأولياء ج : 6.

شيوخه :

تلقى الإمام مالك رحمه الله العلم على يد شيوخ عظام، وأساتذة كرام، وروى عن غير واحد من التابعين، وأخذ العلم عن أكثر من تسعمائة شيخ[147].

وكان ذلك بالمدينة المنورة التي كانت قبلة للعلماء وطلبة العلم، لأنها كانت تزخر بالفقهاء الكبار، والتابعين الأخيار، و لم يؤثر عن مالك أنه رحل في طلب العلم كما كان العلماء يصنعون، و لم يفارق المدينة قط إلا للحج.

من شيوخه الذين تلقى عنهم العلم : ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بربيعة الرأي.

ومحمد بن شهاب الزهري، الذي كان من جلة العلماء، انتهت إليه رئاسة العلم والفتيا بالمدينة المنورة، قال عنه الإمام مالك : ماله في الناس نظير.

وقال أيضا : إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم، فقد أدركت سبعين ممن يقول : قال فلان قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، وأشار إلى أساطين مسجد رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئا، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال لكان أمينا، لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ويقدم علينا ابن شهاب فكنا نزدحم على بابه[148].

وعبد الرحمان بن هرمز، وحسبك به شرفا ونبلا وفضلا، فهو من كبار التابعين، وقد لازمه سبع سنين.

ويحيى بن سعيد الأنصاري قاضي المدينة.

---

(147) انظر شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية، جـ : 1 ص : 54، وتهذيب الأسماء واللغات، ج : 2 ص : 78.

(148) شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية، ج :1 ص : 54.

وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان.

ومنهم نافع أبو عبد الله الديلمي مولى ابن عمر، وناهيك به علما وعملا، فهو من كبار التابعين، ومعدود في أصحاب السلسلة الذهبية.

وأهل الحديث يقولون : رواية الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر سلسلة الذهب، لجلالة كل واحد من هؤلاء الرواة[149].

قال عنه مالك : إذا سمعت حديث نافع عن ابن عمر لا أبالي ألا أسمعه من أحد غيره.

ونافع بن عبد الرحمان بن أبي نعيم مولى جَعْوَنة، ويكنى بأبي رؤيم وهو أحد القراء السبعة المشهورين، اتخذ من المدينة المنورة مسكنا له

كما قال الإمام الشاطبي في لاميته :

فأما الكريم السّر في الطيب نافع ... فذاك الذي اختار المدينة مَنزِلا[150]

قرأ على مالك الموطأ، وقرأ عليه مالك القرآن، فكلاهما يعتبر شيخا للآخر، وقال مالك في قراءته :

قراءة نافع سنة، ومراده بالسنة سنة أهل المدينة المنورة، ولأخذ مالك بقراءة نافع عظم ميل المغاربة إليها وقدموها في التلاوة على غيرها

قال ابن بري في منظومته :

من نظم مقرإ الإمام الخاشع ... أبي رؤيم المدني نافع
إذ كان مقرأ إمام الحرم ... الثبت فيما قد روى المقدم
وللذي ورد فيه أنه ... دون المقاريء سواه سنه[151]

(149) وفيات الأعيان، لابن خلكان ج : 2 (ترجمة الإمام مالك).
(150) حرز الأماني، ووجه التهاني.
(151) الدرر اللوامع.

إلى غير ذلك من شيوخه[152].

وكان رحمه الله يتحرى في الأخذ عن الشيوخ، ويتثبت من أمرهم، وفي هذا يقول : أدركت بهذه البلدة أقواما لو استسقي بهم المطر لسقوا، قد سمعوا العلم والحديث كثيرا، ما حدثت عن أحد منهم شيئا، لأنهم كانوا ألزموا أنفسهم خوف الله والزهد، وهذا الشأن (يعني الحديث والفتيا) يحتاج إلى رجل معه تقى وورع، وصيانة وإتقان وعلم وفهم، فيعلم ما يخرج من رأسه، وما يصل إليه غدا، فأما رجل بلا إتقان ولا معرفة فلا ينتفع به، ولا هو حجة، ولا يؤخذ عنه[153].

تلاميذه :

مما تميز به الإمام مالك عن غيره من الأئمة كثرة التلاميذ، فقد رزق بعدد كثير منهم، و لم يعرف أن إماما من الأئمة كان له من التلاميذ مثل عدد تلاميذ مالك في الكثرة.

قال الإمام السيوطي : الرواة عن مالك فيهم كثرة بحيث لا يعرف لأحد من الأئمة رواة كرواته، وقد أفرد الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي كتابا في الرواة عن مالك أورد فيه ألف رجل إلا سبعة، وذكر القاضي عياض أنه ألف في رواته كتابا ذكر فيه نيفا على ألف اسم وثلاثمائة اسم، وقد سردت أسماء الجميع في مقدمة الشرح الكبير[154].

فقد روى عنه جمع من العلماء الكبار، منهم السفيانان، وشعبة، وعبد الله بن المبارك، والأوزاعي، والليث، والشافعي، وابن شهاب الزهري، وهو شيخه.

---

(152) انظر سير أعلام النبلاء، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).
(153) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 57.
(154) تنوير الحوالك، شرح موطأ مالك، ج : 1 ص : 15.

ومن الذين رووا عنه وتتلمذوا علي يديه ونشروا مذهبه :

عبد الرحمان بن القاسم العتقي المصري، الذي كان ذا علم وصلاح وورع، أثبت الناس في فقه مالك وأعلمهم بأقواله، وهو أول من أدخل الموطأ إلى مصر، صحب مالكا عشرين سنة، وقيل سبع عشرة سنة.

قال رحمه الله : أنخت بباب مالك سبع عشرة سنة، ما بعت فيها ولا اشتريت شيئا...[155].

قال ابن وهب لأبي ثابت : إن أردت هذا الشأن (يعني فقه مالك) فعليك بابن القاسم فإنه انفرد به وشغلنا بغيره[156].

ذُكر عند مالك ابنُ القاسم فقال : عافاه الله، مثله كمثل جراب مملوء مسْكا[157].

أخرج له الإمام البخاري حديثا واحدا في تفسير سورة يوسف.

وأشهب بن عبد العزيز المصري، قيل : اسمه مسكين، وأشهب لقب له صحب مالكا وتفقه عليه.

وكانت المنافسة بينه وبين ابن القاسم، وانتهت الرئاسة إليه بمصر بعد وفاة ابن القاسم[158].

قال فيه الشافعي : ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه[159].

وله مدونة تعرف بمدونة أشهب، وهي غير مدونة سحنون.

---

(155) وله قصة عجيبة مع ابنه، انظر ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 254.

(156) ترتيب المدارك ج : 1، ص : 251.

(157) ترتيب المدارك، ج : 251/1، وسير أعلام النبلاء، ج : 8 ص : 73.

(158) ترتيب المدارك، ج : 259/1، ووفيات الأعيان، لابن خلكان ج : 1 (ترجمة أشهب بن عبد العزيز).

(159) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 259، ووفيات الأعيان ج : 1.

قال الحجوي : وهما (ابن القاسم وأشهب) بالنسبة لمالك كمحمد بن الحسن وأبي يوسف (بالنسبة لأبي حنيفة)[160].

وعبد الله بن وهب الذي لازمه عشرين سنة، ونشر فقهه في مصر، وكان الإمام مالك يحبه ويقدره حتى قيل : ما نجا أحد من زجر الإمام مالك إلا ابن وهب.

وأسد بن الفرات بن سنان، قاضي القيروان نشأ بتونس، ورحل إلى المدينة المنورة، فسمع من مالك.

وعبد الملك بن الماجشون، قال فيه ابن عبد البر : كان فقيها فصيحا دارت عليه الفتيا في زمانه إلى موته.

وعبد الله بن مسلمة بن قعنب الحارثي المعروف بالقعنبي.

ويحيى بن يحيى الليثي، رحل إلى الإمام مالك من الأندلس ثم عاد إليها ونشر مذهبه فيها، وهو أحد رواة الموطأ، وكان الإمام مالك يسميه عاقل الأندلس، وسبب ذلك فيما يروى أنه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه، فقال قائل :

قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه، ولم يخرج يحيى، فقال له مالك : مالك لا تخرج فتراه لأنه لا يكون في الأندلس ؟ فقال : إنما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك، ولم أجئ لأنظر إلى الفيل، فأعجب به مالك وسماه عاقل أهل الأندلس[161].

ومنهم أيضا محمد بن الحسن الشيباني، صاحب أبي حنيفة.

---

(160) الفكر السامي، ج : 524/2.

(161) وفيات الأعيان، لابن خلكان ج : 3 ترجمة (يحيى بن يحيى)، وترتيب المدارك ج : 1 ص : 312.

إلى غير ذلك من الذين تتلمذوا على يديه، وصاروا أعلاما في المذهب المالكي.

قصده طلبة العلم من الآفاق، في آخر دولة أبي جعفر المنصور، وما بعد ذلك، وازدحموا عليه في خلافة هارون الرشيد إلى أن مات رحمه الله.

***

وهو إمام الأئمة، أما إمامته بالنسبة للإمام الشافعي والإمام أحمد فظاهرة، وذلك لأن الإمام الشافعي أخذ عنه مباشرة والإمام أحمد أخذ عنه بواسطة الشافعي.

وأما بالنسبة لأبي حنيفة فقد ذكر الجلال السيوطي في كتابه : «**تزيين الممالك بترجمة الإمام مالك**» أن رواية أبي حنيفة عن مالك ذكرها جماعة من المتقدمين والمتأخرين، فمن المتقدمين : الدار قطني في كتابه، وابن حجر، والبزار في مسند أبي حنيفة، والخطيب البغدادي في كتب الرواة عن مالك، وذكرها من المتأخرين الحافظ مغلطاي، وسراج الدين البلقيني. قال الزركشي في نكته : صنف الدار قطني جزءا في الأحاديث التي رواها أبو حنيفة عن مالك، قال : وقال الحنفية : أجل من روى عن مالك أبو حنيفة[162].

انتشار مذهبه، وأتباعه :

نشأ المذهب المالكي بالمدينة المنورة، ثم ازدهر وانتشر في أرض الحجاز وما حولها، حتى جاء الإمام أحمد بن حنبل فنشر مذهبه وحل محل المذهب المالكي، وظل إلى العصر الحالي.

---

(162) انظر شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية، ج : 1 ص : 54.

قال القاضي عياض متحدثا عن البلاد التي انتشر فيها المذهب المالكي:

فغلب مذهب مالك على الحجاز، والبصرة ومصر، وما والاها من بلاد إفريقية، والأندلس، وصقلية، والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان إلى وقتنا هذا، وظهر ببغداد ظهورا كثيرا، وضعف بها بعد أربعمائة سنة، وضعف بالبصرة بعد خمسمائة سنة، وغلب من بلاد خراسان على قزوين وأبهر، وظهر بنيسابور، وكان بها وبغيرها له أئمة ومدرسون، سنذكر منهم بعد في طبقاتهم من ألهم الله تعالى إليه، وكان ببلاد فارس وانتشر باليمن وكثير من بلاد الشام[163].

وقال ابن خلدون : وأما أهل الحجاز، فكان إمامهم مالك بن أنس الأصبحي، إمام دار الهجرة، رحمه الله تعالى، واختص بزيادة مدرك آخر غير المدارك المعتبرة عند غيره، وهو عمل أهل المدينة إلى أن قال : وأما مالك رحمه الله تعالى، فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس، وإن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا في القليل لما أن رحلتهم كانت غالبا إلى الحجاز وهو منتهى سفرهم، والمدينة يومئذ دار العلم. إلى أن قال :

وأيضا فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق، فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب. إلى أن قال : وأهل المغرب جميعا مقلدون لمالك رحمه الله، وقد كان تلاميذه افترقوا بمصر والعراق، فكان بالعراق منهم القاضي إسماعيل وطبقته، مثل ابن خويز منداد، وابن اللَّبان، والقاضي، وأبي بكر الأبهري، والقاضي أبي

(163) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 31.

حسين بن القصار، والقاضي عبد الوهاب، ومَن بعدهم، وكان بمصر ابن القاسم، وأشهب، وابن عبد الحكم، والحارث بن مسكين، وطبقتهم، ورحل من الأندلس عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته، وبث مذهب مالك في الأندلس، ودون فيه كتاب الواضحة، ثم دون العتبي من تلامذته كتاب العتبية...[164]

وقال الإمام الذهبي : ... ومذهبه قد ملأ المغرب، والأندلس، وكثيرا من بلاد مصر، وبعض الشام، واليمن، والسودان، والبصرة، وبغداد، والكوفة، وبعض خراسان[165].

ظهور مذهب الإمام مالك في المغرب :

كان المغاربة في صدر الإسلام على مذهب جمهور السلف من الأمة أصولا وفروعا واعتقادا وتشريعا، كمذهب الإمام أبي حنيفة ومذهب الإمام الأوزاعي وغيرهما، إلى أن استقروا على مذهب الإمام مالك أيام الأدارسة.

قال صاحب الاستقصا : قال عياض في المدارك : ظهر مذهب أبي حنيفة بافريقية ظهورا كبيرا إلى قرب أربعمائة سنة فانقطع منها، ودخل منه شيء إلى ما وراءها من المغرب قديما بمدينة فاس، وبالأندلس، وكذا ظهر بالأندلس أيضا مذهب عبد الرحمان الأوزاعي من أهل الشام.

واختلف الناس في السبب الذي انتقل به أهل المغرب عن مذهب أبي حنيفة وغيره إلى مذهب الإمام مالك بن أنس الذي هو مذهب السلف من أهل الحجاز، قال ابن خلكان في ترجمة المعز بن باديس الصنهاجي المتوفى في أواسط المائة الخامسة ما نصه : (كان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه

(164) مقدمة ابن خلدون ص : 495 و794.
(165) سير أعلام النبلاء ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

بافريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه وحسم مادة الخلاف في المذاهب، واستمر الحال من ذلك الوقت إلى الآن).

إلى أن قال : هذا والمعروف أن مذهب مالك ظهر أولا بالأندلس ثم انتقل منها إلى المغرب الأقصى أيام الأدارسة، وكذا ظهر بإفريقية ظهورا بينا قبل وجود المعز بكثير.

إلى أن قال : وذلك على يد أسد بن الفرات، وعبد السلام بن سعيد التنوخي المعروف بسحنون، وغيرهما من أئمة المغاربة إلى أن قال : ورأيت في بعض التآليف في سبب ظهور مذهب مالك بالأندلس والمغرب أن حاج المغرب والأندلس قدموا على مالك رضي الله عنه بالمدينة فسألهم عن سيرة عبد الرحمان بن معاوية المعروف بالداخل، فقيل له :

إنه يأكل الشعير ويلبس الصوف ويجاهد في سبيل الله، فقال مالك: ليت الله زين حرمنا بمثله، فنقم عليه بنو العباس هذه المقالة، وكان ذلك سبب توصلهم لضربه في مسألة الإكراه كما هو مشهور، وبلغت مقالته صاحب الأندلس فسر بها، وجمع الناس على مذهبه فانتشر في أقطار المغرب من يومئذ والله أعلم[166].

وجاء في النبوغ : ولعل أهم ما نسجله عن الحياة الفكرية في هذا العصر (عصر الفتوح) التي قلنا : إن تأسيس جامع القرويين كان مبدأ الارتكاز لها في المغرب، هو ظهور المذهب المالكي في الفقه، وسيطرته على المذهب الكوفي الذي كانت له الصولة في المغرب، وبالتالي قضاؤه على المذاهب الأخرى التي كانت منتشرة في جهات مختلفة من هذا القُطر، كالمذهب الخارجي الذي كانت تعتنقه إمارة بني مِدْرار في سجلماسة،

(166) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأحمد الناصري، ج : 1 ص : 124 و125.

والبرغواطي الذي كان باض وفرّخ في تامَسنا، والاعتزالي الذي كان منتشرا هنا وهناك، كالشيعي الذي يُقال :

إن قرنه طلع مع نشوء الدولة الإدريسية، وعلى كل حال فإن مذهب مالك لم يتوطّد أمره في هذا العصر كمذهب فقهي فقط، ولكن كعقيدة أيضا فإن التلازم بين طريقته في الفقه والاعتقاد، وهي اتباع السنة ونبذ الرأي والتأويل، مما لا يخفى[167].

ثناء الأئمة عليه :

أثنى على الإمام مالك جلة من العلماء ثناء كبيرا.

قال عنه الإمام الشافعي : مالك معلمي، وفي رواية أستاذي وعنه أخذت العلم، وما أحد أمن علي في علم الله من مالك، وإنما أنا غلام من غلمان مالك، وجعلت مالكا بيني وبين الله حجة، ولم يبلغ أحد مبلغ مالك في العلم وقال :

إذا جاءك الأثر عن مالك فشد به يدك. وقال : لولا مالك وسفيان، لذهب علم الحجاز[168].

وقال : من أراد الحديث فهو عيال على مالك، وإذا ذكر العلماء أو الحديث فمالك النجم. (وكأنه يشير إلى قوله تعالى : ﴿**وبالنجم هم يهتدون**﴾ [النحل : 16]. فكما أن النجوم يهتدي بها السائرون ليلا فكذلك مالك نجم يهتدى به في الحديث).

وقال أيضا : مالك حجة الله تعالى على خلقه بعد التابعين.

وقال عنه ابن مَعين : كان مالك من حجج الله على خلقه.

(167) النبوغ المغربي، في الأدب العربي، عبد الله كنون، ج : 1 ص : 54.
(168) انظر ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 62.

وقال أيضا : إمام الأئمة، وفقيه الأمة، وشيخ الإسلام، وعالم المدينة، وأمير المؤمنين في الحديث.

وقال النسائي صاحب السنن : ما عندي بعد التابعين أنبل من مالك، ولا أجل منه ولا أوثق، ولا آمن على الحديث منه.

وقال عنه الإمام أحمد: إذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع.

وذكر عنده يوما فقال : هو إمام في الحديث وفي الفقه.

وقال بشر الحافي : حدثنا مالك وأستغفر الله، إن من زينة الدنيا أن يقول الرجل حدثنا مالك[169].

وقال الإمام البخاري : أصح الأسانيد، مالك عن نافع عن ابن عمر.

وقال فيه سفيان بن عيينة : ما كان أشد انتقاده للرجال.

وقال له ابن شهاب : أنت من أوعية العلم، أو إنك لنعم مستودع العلم[170].

وقال أبو عبد الله الحاكم في بيان منزلته : ... فضربت إليه أكباد الإبل من الآفاق، واعترفوا له، وروت الأئمة عنه ممن كان أقدم منه سنا كالليث عالم أهل مصر والمغرب، وكالأوزاعي عالم أهل الشام ومفتيهم، والثوري وهو المقدم في الكوفة، وشعبة عالم أهل البصرة...[171].

وقال عبد الله بن المبارك : لو قيل لي : اختر للأمة إماما، اخترت لها مالكا.

---

(169) ترتيب المدارك، ج : 85/1.

(170) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 61.

(171) سير أعلام النبلاء، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

وقال ابن مهدي : ما رأيت رجلا أعقل من مالك.

وقال عنه الإمام الذهبي : هو شيخ الإسلام، وحجة الأمة، وإمام دار الهجرة.

وقال أيضا : و لم يكن بالمدينة عالم من بعد التابعين يشبه مالكا في العلم، والفقه، والجلالة والحفظ، فقد كان فيها بعد الصحابة مثل سعيد بن المسيب، والفقهاء السبعة، والقاسم، وسالم، وعكرمة، ونافع، وطبقتهم ثم زيد بن أسلم، وابن شهاب، وأبي الزناد، ويحيى بن سعيد، وصفوان بن سليم، وربيعة بن أبي عبد الرحمان، وطبقتهم، فلما تفانوا اشتهر ذكر مالك بها وابن أبي ذئب، وعبد العزيز بن الماجشون، وسليمان بن بلال، وفليح بن سليمان، والدراوردي، وأقرانهم فكان مالك هوالمقدم فيهم على الإطلاق، والذي تضرب إليه آباط الإبل من الآفاق رحمه الله تعالى.

وقال أيضا : قلت : قد كان هذا الإمام من الكبراء السعداء، والسادة العلماء، ذا حشمة وتجمل، وعبيد، ودار فاخرة، ونعمة ظاهرة، ورفعة في الدنيا والآخرة، كان يقبل الهدية، ويأكل طيبا، ويعمل صالحا،

وما أحسن قول ابن المبارك فيه :

صَموت إذا ما الصمت زين أهله ... وفـتّـاق أبـكـار الـكـلام المختـم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ... وسيطت له الآداب باللحم والدم[172]

وقال ابن عيينة : فيما رواه عنه ابن خزيمة في صحيحه، كما في تهذيب التهذيب، لابن حجر رحمه الله تعالى : إنما كنا نتبع آثار مالك وننظر إلى الشيخ، إن كتب عنه وإلا تركناه، وما مثلي ومثل مالك

(172) سير أعلام النبلاء، للذهبي ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

إلا كما قال الشاعر :

وابن اللبون إذا ما لُز في قرن لم يستطع صولة البزل القناعيس.

كان رحمه الله موصوفا بالعلم والديانة وكمال الإدراك والفهم والإتقان.

وقال الإمام الزرقاني في مقدمة شرحه على الموطأ : وأما مالك فهو الإمام المشهور، صدر الصدور، وأكمل العقلاء وأعقل الفضلاء ورث حديث الرسول، ونشر في أمته الأحكام والفصول.

وقال الإمام النووي : وأجمعت طوائف العلماء على إمامته، وجلالته، وعظم سيادته، وتبجيله، وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والتثبت، وتعظيم حديث رسول الله ﷺ[173].

جاء في الحديث : «**يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل، يطلبون العلم، فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة**»[174].

وقد روي عن ابن عيينة، أنه قال : هو مالك بن أنس، وكذا قال عبد الرزاق[175].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : والذين نازعوا في هذا لهم مأخذان : أحدهما : الطعن في الحديث، فزعم بعضهم أن فيه انقطاعا، والثاني : أنه أراد غير مالك كالعمري الزاهد ونحوه.

فيقال : ما دل عليه الحديث وأنه مالك أمر متقرر لمن كان موجودا، وبالتواتر لمن كان غائبا، فإنه لا ريب أنه لم يكن في عصر مالك أحد ضرب إليه الناس أكباد الإبل أكثر من مالك...[176].

---

(173) تهذيب الأسماء واللغات، ج : 2 ص : 76.

(174) رواه الترمذي، وحسنه (كتاب العلم، رقم الحديث :2689) وضعفه الألباني : (ضعيف سنن الترمذي ص : 274).

(175) البداية والنهاية، لابن كثير، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

(176) انظر مجموع الفتاوى، ج : 323/20.

وقال في المراقي :

إذا سمعت فالإمام مالك ... صح له الشأو الذي لايدرك
للأثر الصحيح مع حسن النظر ... في كل فن كالكتاب والأثر[177]

ومدحه بعضهم بقوله :

ألا إن فقد العلم في فقد مالك ... فلا زال فينا صالح الحال مالك
فلولاه ما قامت حقوق كثيرة ... ولولاه لانسدت علينا المسالك
يقيم سبيل الحق سرا وجهرة ... ويهدي كما تهدي النجوم الشوابك
عشونا إليه نبتغي ضوء ناره ... وقد لزم العي اللجوج المماحك
فجاء برأي مثله يقتدى به ... كنظم جمان زينته السبائك.

مجلسه وهيبته :

لما أخذ الإمام مالك من العلم ما يؤهله للتدريس والإفتاء اتخذ لنفسه مجلسا في المسجد النبوي وذلك بعد أن شهد له سبعون شيخا أنه أهل لذلك، وقد جلس رحمه الله للإفتاء والتدريس والوعظ في سن مبكرة، قيل ابن عشرين عاما، وقيل ابن سبعة عشر عاما، وذلك بعد ما نبغ في العلم، فصارت حلقته أكبر من حلق مشايخه في حياتهم.

قال أبو مصعب سمعت مالكا يقول : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك[178].

وكانت مجالس تدريسه رحمه الله يجللها الوقار والسكينة والمهابة، وكان الناس يزدحمون على بابه، لأخذ الحديث والفقه كازدحامهم على باب السلطان.

---

(177) (مراقي السعود) في أصول الفقه، لعبد الله الشنقيطي.
(178) البداية والنهاية، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

عرف رحمه الله بالهيبة والسكينة، والابتعاد عن لغو الكلام، فكان رجلا مهابا نبيلا، يخاف الله ويعظمه، ولذلك جعل الله له هذه الهيبة والتعظيم في قلوب الناس، إذا سئل عن شيء فأجاب، لا يستطيع السائل أن يراجعه، يقول محمد بن الحسن : لقد جلست بين يدي المهدي، والهادي، والرشيد (خلفاء) والله ما وجدت الهيبة التي وجدتها لما جلست بين يدي مالك.

وهذه الهيبة هي التي قال فيها تلميذه القعنبي : ما أحسب مالكا بلغ ما بلغ إ لا بسريرة كانت بينه وبين الله تعالى[179].

فكان مهابا يهابه الناس، بل يهابه حتى الكبراء والأمراء والخلفاء، وكانوا يجلونه ويحترمونه ويضعونه في المنزلة اللائقة به، فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور ناظر مالكا في المسجد النبوي، فلما رفع من صوته قال له الإمام مالك : يا أمير المؤمنين، إن الله أدب بهذا المقام أقواما فقال :

﴿**يأيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**﴾ [الحجرات الآية : 2].

ومدح أقواما فقال : ﴿**إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم**﴾ [الحجرات : 3].

وذم أقواما فقال : ﴿**إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون**﴾ [الحجرات : 4] وإن حرمته ميتا كحرمته حيا.

فما كان من الخليفة إلا أن استكان وخفض من صوته[180].

ولما رأى سفيان الثوري إجلال الناس لمالك وهيبتهم له في مجلسه

---

(179) انظر ترتيب المدارك، ج : 85/1.

(180) انظر ترتيب المدارك ج : 113/1 والشفا، بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض ص : 401.

أنشد يقول :

يأبى الجواب فما يراجع هيبة والسائلون نواكس الأذقان
أدَبُ الوقار وعز سلطان التّقى فهو المطاع وليس ذا سلطان

وهو العالم الذي كان له غلمان يقومون على تنظيم مجلسه، وعلى تأديب كل من أساء الأدب فيه، ولو أتى لطلب العلم، فإذا أخل ببعض الآداب المرعية في المجلس فإنه يؤدب.

ومن الأمثلة على ذلك قصة هشام بن عمار «شيخ البخاري، وأبي داود، حافظ دمشق، ومقرئها، ومحدثها» وقد جهزه أبوه للحج وطلب العلم في سن مبكرة، يحكي قصته فيقول رحمه الله :

باع أبي بيتا له بعشرين دينارا وجهزني للحج وطلب العلم، فلما حضرت إلى المدينة أتيت مجلس مالك بن أنس، ومعي مسائل أريد أن أساله عنها فأتيته وهو جالس في بيته في هيئة الملوك، وغلمان قيام، والناس يسألونه وهو يجيبهم، فلما انقضى المجلس قلت : يا أبا عبد الله، ما تقول في كذا وكذا ؟ فقال : حصلنا على الصبيان، يا غلام احمله فحملني كما يحمل الصبي، وأنا يومئذ غلام مدرك، فضربني بدرة مثل درة المعلمين سبع عشر درة، فوقفت أبكي، فقال لي مالك بن أنس : ما يبكيك، أوجعتك هذه الدرة ؟ قلت :

إن أبي باع منزله ووجه بي أتشرف بك وبالسماع منك، فظلمتني وضربتني بغير جرم، لا أجعلك في حل، فقال مالك :

فما كفارته ؟ قلت : كفارته أن تحدثني بكل سوط حديثا عن رسول الله ﷺ فحدثني سبعة عشر حديثا، فقلت له :

زد من الضرب وزد من الحديث، فضحك مالك وقال : اذهب[181].

وسأله جرير بن عبد الحميد القاضي عن حديث وهو قائم، فأمر بحبسه، فقيل له : إنه قاض، فقال : القاضي أحق أن يؤدب،احبسوه فحبس إلى الغد[182].

وقال بشر بن آدم : سأل الأغضب مالكا عن مسألة ثم عن أخرى فأجابه، ثم عن أخرى فلم يجبه، فقال له : لم ؟ فقال مالك : يا غلام خذ بيده فاذهب به إلى السجن، قال : إني قاضي أمير المؤمنين قال : ذاك أهون لك، قال : لا أعود، قال : خل سبيله[183].

ومما يدخل في هذا الباب، قصته مع هارون الرشيد حينما طلب منه أن يأتي إليه ليقرأ عليه الموطأ، فقال له مالك : إن العلم يؤتى ولا يأتي.

وحين طلب منه أيضا أن يناظر أبا يوسف صاحب أبي حنيفة، قال له مالك مغضبا : «إن العلم ليس كالتحريش بين البهائم والديكة»[184].

وهدف الإمام مالك من هذا كله : هو إظهار قيمة العلم، وصونه عن التعرض للإهانة، وتعريف الناس بمكانة العلماء ليجلوهم ويحترموهم ويتأدبوا في حضرتهم، وينزلوهم المنزلة اللائقة بهم.

هذا الإجلال والاحترام الذي فقد اليوم مع الأسف أو كاد يفقد، فلم تبق للعلماء تلك المكانة التي كانت لهم في السابق، فالعالم اليوم أهمله الكثير إهمالا و لم يعد يُلقِ له بالا، فصار كواحد من عامة الناس لا يعتبر كلامه ولا يلتفت إليه، وهذا فيه إهانة للعلم والعلماء.

---

(181) انظر صلاح الأمة، في علو الهمة، لسيد حسين العفاني ج : 1 ص : 199.
(182) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 81.
(183) ترتيب المدرك ج : 1 ص : 83.
(184) انظر (الأئمة التسعة) لعبد الرحمان الشرقاوي، ص : 109.

قيل : لا يفتى ومالك بالمدينة.

وهذه المقالة لها سبب، فقد ورد أن امرأة توفيت بالمدينة المنورة، في عهد الإمام مالك، فغسلتها غاسلة فلصقت يدها على فرج الميتة، فحاروا في أمر هذه النازلة، فاستفتوا العلماء فيها، فالبعض أفتى بقطع يد الغاسلة، والبعض بقطع جزء من لحم الميتة، ولجئوا أخيرا إلى الإمام مالك رحمه الله، فقال لهم :

خلوا بيني وبين الغاسلة، فقال لها : أنشدك الله، هل اتهمتها بشيء، قالت : اتهمتها بالزنى حينما قلت : كم زنى هذا الفرج ؟ فقال لهم : أرى أن يقام عليها حد القذف، فحدت فانفصلت يدها[185].

عنايته بكتاب الله

قال ابن وهب : قيل لأخت مالك بن أنس : ما كان شغل مالك بن أنس في بيته؟ قالت : المصحف والتلاوة[186].

كان رحمه الله يترك التحديث إذا جاء رمضان، قصد التفرغ لقراءة القرآن والعبادة.

وهذا يدل على عظيم عنايته بكتاب الله تعالى.

حرصه على السنة وتعظيمه لها :

كان رحمه الله، حريصا على العمل بالسنة، وعلى تعظيمها، ومن تعظيمه لها أنه كان إذا أراد التحديث، يأخذ بآداب عظيمة فيتزين

---

(185) انظر تعليق مصطفى محمد عمارة، على كتاب : الترغيب والترهيب، للمنذري ج : 1 ص: 15، والأئمة الأربعة، للشناوي ص : 13.

(186) الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، ج : 1 (ترجمة الإمام مالك).

ويتـنـظف ويتطيب، ويسرح لحيته، ويلبس أحسن ثيابه ويتعمم ويجلس في خشوع وخضوع ووقار، ويبخر المكان ويطيبه إكراما وإجلالا وتعظيما لأحاديث رسول الله ﷺ.

قال مطرف : وكان مالك إذا أتاه الناس خرجت إليهم الجارية، فتقول لهم : يقول لكم الشيخ : تريدون الحديث أو المسائل ؟ فإن قالوا المسائل خرج إليهم، وإن قالوا : الحديث دخل مغتسله فاغتسل وتطيب ولبس ثيابا جددا ولبس ساجه وتعمم ووضع على رأسه رداءه، وتلقى له المنصة، فيخرج إليهم وقد لبس وتطيب وعليه الخشوع، ويوضع عود فلا يزال يبخر حتى يفرغ من حديث رسول الله ﷺ[187].

وَقَالَ غَيْرُه : و لم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله ﷺ.

قال ابن أبي أويس : كان مالك إذا جلس للحديث توضأ وجلس على صدر فراش وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة، ثم حدث، فقيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا[188].

ومر على أبي حازم وهو يحدث فجازه و لم يأخذ منه شيئا، وقال : إني لم أجد موضعا أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم[189].

ومن تعظيمه لها أيضا : أنه كان يكره أن يحدث في الطريق أو وهو قائم أو مستعجل، ويقول : أحب أن أفهم حديث رسول الله ﷺ.

---

(187) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 77.
(188) ترتيب المدارك ج : 77/1.
(189) حلية الأولياء، ج : 6 (ترجمة الإمام مالك).

قال ابن مهدي : مشيت مع مالك يوما إلى العقيق، فسألته عن حديث فانتهرني، وقال لي : كنت في عيني أجل من هذا أتسألني عن حديث رسول الله ﷺ ونحن نمشي.

وَقَالَ عبد الله بن المبارك : كنت عند مالك وهو يحدثنا فلدغته عقرب ست عشرة مرة، وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس قلت لـه : يا أبا عبد لله لقد رأيت منك اليوم عجبا، قال : نعم، إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله ﷺ[190].

وَقَالَ مصعب بن عبد الله : كان مالك إذا ذكر النبي ﷺ يتغير لونه وينحني حتى يصعب ذلك على جلسائه، فقيل له يوما في ذلك فقال : لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم علي ما ترون، كنت آتي محمد بن المنكدر وكان سيد القراء لا نكاد نسأله عن حديث إلا بكي حتى نرحمه، ولقد كنت آتي جعفر بن محمد وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر عنده النبي ﷺ اصفر، وما رأيته يحدث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة، ولقد اختلفت إليه زمانا فما كنت أراه إلا على ثلاث خصال إما مصليا وإما صامتا وإما يقرأ القرآن، ولا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان من العلماء والعباد الذين يخشون الله عز وجل...[191].

حكى القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله عن الزبير بن بكار قال : سمعت سفيان بن عيينة يقول : سمعت مالك بن أنس، وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله، من أين أحرم ؟ قال : من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله ﷺ فقال : إني أريد أن أحرم من المسجد، فقال : لا تفعل، قال : إني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال : لا تفعل، فإني

(190) ترتيب المدارك ج : 77/1.
(191) ترتيب المدارك، ج : 93/1 والشفا، للقاضي عياض ص : 402.

أخشى عليك الفتنة، قال : وأي فتنة في هذا ؟ إنما هي أميال أزيدها قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله ﷺ إني سمعت الله يقول : ﴿**فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم**﴾ [النور الآية : 61][192].

قال ابن وهب : سمعت مالكا يسأل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء فقال : ليس ذلك على الناس، قال : فتركته حتى خف الناس، فقلت له : يا أبا عبد الله، سمعتك تفتي في مسألة تخليل أصابع الرجلين، زعمت أن ليس ذلك على الناس، وعندنا في ذلك سنة، فقال : وما هي ؟ فقلت : حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمر بن الحارث، عن يزيد بن عمرو المعافري، عن أبي عبد الرحمان الحبلي عن المستورد بن شداد القرشي، قال : رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه، فقال : إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلا الساعة، ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع[193].

هذا بالنسبة لشدة تعظيمه للسنة وصاحبها.

أما بالنسبة لشدة كراهيته للبدعة :

فيكفي فيه ما ذكره ابن الماجشون حيث قال : سمعت مالكا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**﴾ [المائدة الآية : 4]. فما لم يكن يومئذ دينا، فلا يكون اليوم دينا[194].

---

(192) أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي، سورة النور، الآية : 61.

(193) انظر السنن الكبرى، للبيهقي ج : 1 (كتاب الطهارة)، والجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، ج : 1 (ترجمة الإمام مالك).

(194) الاعتصام، للشاطبي ج : 1 ص : 62 وج : 2.

وكان رحمه الله، يتمثل بهذا البيت :

وخير أمور الدين ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع

ولم يقتصر تعظيمه على السنة المطهرة وصاحبها ﷺ بل كان شاملا لمكانه ومدينته عليه الصلاة والسلام.

فكان إذا رفع الراوي صوته يقول له : اغضض من صوتك، ويذكر قول الله تعالى : ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي**﴾ [الحجرات : 2] ويقول : حرمته حيا وميتا سواء.

وكان لا يركب فيها على دابة، قال الشافعي رأيت بباب مالك كراعا من أفراس خراسان، وبغال مصر، فقلت : ما أحسنها، فقال : هي هبة مني إليك، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركبها، قال : أنا أستحيي من الله أن أطأ تربة نبي الله بحافر دابة[195].

فكان رحمه الله لا يركب دابة في المدينة المنورة إجلالا لرسول الله عليه الصلاة والسلام.

قال ابن خلكان : كان لا يركب في المدينة المنورة مع ضعفه وكبر سنه ويقول : لا أركب في مدينة فيها جثة رسول الله ﷺ مدفونة[196].

وقد أفتى رحمه الله فيمن قال : تربة المدينة ردية يضرب ثلاثين درة وأمر بحبسه، وكان له قَدْر، وقال : ما أحوجه إلى ضرب عنقه، تربة دفن فيها النبي ﷺ يزعم أنها غير طيبة[197].

---

(195) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 93.

(196) وفيات الأعيان، ج : 2 (ترجمة الإمام مالك).

(197) الشفا للقاضي عياض ، ص : 416.

من كلامه رحمه الله :

قال رحمه الله : لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها[198].

وكان يقول هو وغيره من السلف : السنة كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق[199].

قَالَ معن بن عيسى سمعت مالكا يقول : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه[200].

وقال : ما منا إلا راد ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر، وأشار إلى قبر النبي ﷺ.

وقال : إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم.

قال ابن وهب : كنت بين يدي مالك رحمه الله، فوضعت ألواحي وقمت أصلي، فقال : ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه[201].

وقال : إذا مدح الرجل نفسه ذهب بهاؤه.

وقال : لولا النسيان كان أكثر الناس علماء.

وقال : لو صرت من العلوم في غاية، ومن الفهوم في نهاية، ما خرجت عن أصلين : كتاب الله وسنة رسول الله، ولا سبيل إليهما إلا بمعرفة اللسان العربي.

---

(198) اقتضاء الصراط المستقيم، مخالفة أصحاب الجحيم، ص : 367، ومجموع الفتاوى، ج : 375/20 لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(199) انظر مجموع الفتاوى، ج : 623/11.

(200) انظر ترتيب المدارك ج : 1 ص : 72، وجامع بيان العلم وفضله، ج : 2 ص : 248.

(201) مدارج السالكين، ج : 439/2 (منزلة العلم).

وقال : إياكم ورق الأحرار، قيل : وما رق الأحرار ؟ قال : كثرة الإخوان، فإن كنت قاضيا ظلمت أو اتهمت بالظلم، وإن كنت عالما ضاع وقتك.

وقال : ما زهد أحد في الدنيا إلا أنطقه الله بالحكمة[202].

ويقول إذا أكثروا عليه في السؤال : حسبكم من أكثر فقد أخطأ، ومن أحب أن يجيب عن كل مسألة فليعرض نفسه على الجنة والنار ثم يجيب، وقد أدركتهم إذا سئل أحدهم فكأن الموت أشرف عليه.

وقال أيضا : ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور وفهم يضعه الله في قلب من يشاء.

وكان يقول : حق على من طلب العلم أن يكون فيه وقار وسكينة وخشية.

وقال : إذا علمت علما فلير عليك أثره وسَمته وسكينته ووقاره وحلمه، وقال : إن العلماء لم يكونوا يهذرون الكلام هكذا، ومن الناس من يتكلم كلام شهر في ساعة واحدة[203].

ومن كلامه رحمه الله : تلك القولة المشهورة التي اعتبرها علماء أهل السنة والجماعة بمثابة قاعدة في باب الأسماء والصفات، وميزانا يزنون به كل صفة من الصفات، وهي قوله حين سئل عن قول الله تعالى : ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه الآية : 4]. كيف استوى على العرش ؟ فأطرق رأسه حتى علاه العرق، وقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وأظنك صاحب بدعة وأمر به فأخرج[204].

---

(202) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 98.

(203) المدخل، لابن الحاج، ج : 2 ص : 124.

(204) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 87. وسير أعلام النبلاء، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك) وحلية الأولياء، ج : 6 (ترجمة الإمام مالك).

قيل له ذات يوم : كيف أصبحت، قال : في عمر ينقص وذنوب تزيد.

وقال أيضا : أعرف أقواما عندهم عيوب سكتوا عن عيوب الناس فسكت الناس عن عيوبهم، وأعرف أقواما ليست لهم عيوب (يعني أنهم ذووا فضل وأخلاق) تكلموا في عيوب الناس فأحدث الناس لهم عيوبا. (يعني مكذوبة).

ويقول : من آداب العالم، ألا يضحك إلا تبسما.

قال ابن وهب : الذي تعلمنا من أدب مالك أكثر مما تعلمنا من علمه[205].

تحري الصواب في الفَتْوى :

وكان رحمه الله يتحرى الصواب في أجوبته، فلا يفتي إلا بما يعلم، خشية الوقوع في الخطإ.

ولا يجيب عن المسائل الافتراضية، ويقول : للسائل سل عما يكون، ودع عنك ما لا يكون.

سأله رجل عراقي عن رجل وطئ دجاجة ميتة، فخرجت منها بيضة فأفقست البيضة عنده عن فرخ، أيأكله؟ فقال مالك : سل عما يكون ودع ما لا يكون[206].

وكان يحترز في التحديث، فكان لا يحدث إلا بما يرى فيه مصلحة أو منفعة، حتى قال : لقد خرجت مني أحاديث، لوددت أني ضربت بكل حديث منها سوطا ولم أحدث بها.

---

(205) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 53.

(206) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 73.

وكان على جلالة قدره وعلو منزلته، قلما يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية: ﴿**إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين**﴾ [الجاثية : 31][207].

قال ابن القاسم : سمعت مالكا يقول : إني لأفكر في مسألة منذ بضع عشرة سنة، فما اتفق لي فيها رأي إلى الآن[208].

ذكر الإمام القرطبي : أن الإمام مالكا رحمه الله دخل المسجد بعد صلاة العصر، وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر، فجلس و لم يركع، فقال له صبي : يا شيخ قم فاركع، فقام فركع و لم يحاجه بما يراه مذهبا، فقيل له في ذلك، فقال : خشيت أن أكون من الذين ﴿**إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون**﴾ [المرسلات : 48][209].

قول لا أدري :

وكان رحمه الله يكثر من قول لا أدري، فيما لا علم له به، حتى قال ابن وهب وهو من أصحابه : لو شئت أن أملأ ألواحي من قول مالك لا أدري فعلت[210].

ويقول : جنة العالم لا أدري، فإذا أغفلها أصيبت مقاتله، وقد أخذ هذا عن شيخه : عبد الرحمان بن هرمز الذي كان يقول :

ينبغي للعالم أن يورث جلساءه قول لا أدري، حتى يكون ذلك أصلا في أيديهم يفزعون إليه، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا أدري[211].

ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره عبد الرحمان بن مهدي حيث قال : كنا عند مالك بن أنس فجاءه رجل فقال له : يا أبا عبد الله جئتك من مسيرة

---

(207) انظر حلية الأولياء ج : 6 (ترجمة الإمام مالك).
(208) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 70.
(209) الجامع لأحكام القرآن، سورة (المرسلات) الآية : 48.
(210) حلية الأولياء، ج : 6 (ترجمة الإمام مالك).
(211) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 72.

ستة أشهر حمّلني أهل بلدي مسألة أسألك عنها، قال : فسل، فسأله الرجل عن المسألة، فقال : لا أحسنها قال : فبهت الرجل كأنه قد جاء إلى من يعلم كل شيء، فقال أي شيء أقول لأهل بلدي إذا رجعت إليهم ؟ قال : تقول لهم قال : مالك لا أحسن[212].

وسئل رحمه الله عن ثمان وأربعين مسألة فأجاب عن اثنين وثلاثين منها بقوله : لا أدري.

قال ابن الجوزي رحمه الله : إذا صح قصد العالم استراح من كلف التكليف، فإن كثيرا من العلماء يأنفون من قول : لا أدري، فيحفظون بالفتوى جاههم عند الناس لئلا يقال : جهلوا الجواب، وإن كانوا على غير يقين مما قالوا، وهذه نهاية الخذلان، وقد روي عن مالك بن أنس أن رجلا سأله عن مسألة فقال : لا أدري، فقال سافرت من البلدان إليك، فقال ارجع إلى بلدك وقل : سألت مالكا فقال : لا أدري.

فانظر إلى دين هذا الشخص وعقله، كيف استراح من الكلفة وسلم عند الله عز وجل[213].

وكذلك الأئمة الثلاثة كانوا يجيبون بقولهم لا أدري، عند ما يسألون عن المسائل التي لا علم لهم بها، وهذا لا يطعن في مكانتهم، بل هو دليل على ورعهم وشدة خوفهم من الله.

كما قال في مراقي السعود :

فالكل من أهل المناحي الأربعهْ يقول لا أدري فكن متبعهْ

وكما قال بدر الدين بن جَمَاعَة رحمه الله: واعلم أن قول المسئول لا أدري، لا يضع من قدره كما يظن بعض الجهلة بل يرفعه، لأنه دليل على

(212) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ج : 2 ص : 273.
(213) صيد الخاطر، ص : 52.

عظم محله، وقوة دينه، وتقوى ربه، وطهارة قلبه، وكمال معرفته، وحسن تثبته[214].

قال ابن القيم : وكان مالك رحمه الله يقول : من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها، وسئل عن مسألة فقال : لا أدري، فقيل له : إنها مسألة خفيفة سهلة، فغضب وقال : ليس في العلم شيء خفيف، أما سمعت قول الله عز وجل : ﴿**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**﴾ [المزمل الآية : 4]. فالعلم كله ثقيل، وخاصة ما يسأل عنه يوم القيامة.

وقال : ما أفتيت حتى شهد لي سبعون أني أهل لذلك، وقال : لا ينبغي لرجل أن يرى نفسه أهلا لشيء حتى يسأل من هو أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد فأمراني بذلك ولو نهياني انتهيت، قال : وإذا كان أصحاب رسول الله ﷺ تصعب عليهم المسائل ولا يجيب أحد منهم عن مسألة حتى يأخذ رأي صاحبه مع ما رزقوا من السداد والتوفيق والطهارة، فكيف بنا الذين غطت الذنوب والخطايا قلوبنا ؟ وكان رحمه الله إذا سئل عن مسألة فكأنه واقف بين الجنة والنار[215].

ومن كلامه رحمه الله قوله : المراء في العلم يقسي القلب، ويورث الضغن[216].

كتاب الموطأ :

يعتبر كتاب الموطأ أول كتاب جامع ألف في الحديث والآثار، ذاع وانتشر بين أهل الديار، وتناقلته الأجيال، وتنافس في حفظه الأقران، وهو أحد أمهات كتب الحديث والسنة.

---

(214) تذكرة السامع والمتكلم، في آداب العالم والمتعلم ص : 130.

(215) اعلام الموقعين، ج : 4 ص : 167.

(216) موسوعة نضرة النعيم، في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ج : 7 ص : 2979.

ولفظة الموطأ تعني : الممهد المنقح.

قال الإمامُ مالك : عرضت كتابي هذا على سبعين فقيها من فقهاء المدينة، فكلهم واطأني عليه، فسميته الموطأ، ولم يسبق مالكا أحد إلى هذه التسمية، فإن من ألف في زمانه بعضهم سمى بالجامع، وبعضهم سمى بالمصنف، وبعضهم بالمؤلف.

سبب وضع الموطأ :

وسبب وضعه له طلب الخليفة : أبي جعفر المنصور حيث قال له : ضع للناس كتابا اجتنب فيه شدائد ابن عمر، ورخص ابن عباس، وشواذ ابن مسعود، واقصد أوسط الأمور، وما أجمع عليه الصحابة والأئمة.

فاستحسن الإمام مالك رحمه الله هذا الطلب ولقي منه ترحيبا كبيرا، فعزم على تأليفه، واستغرق في تأليفه مدة طويلة، ولم يكمله إلا بعد موت الخليفة أبي جعفر المنصور على المشهور، فقام علماء ءاخرون بتأليف موطآت، فقيل لمالك : شغلت نفسك بعمل هذا الكتاب، وقد شاركك فيه الناس وعملوا مثله، فقال ائتوني بما عملوا، فأوتي بذلك فنظر فيه، وقال : لا يرفع إلا ما أريد به وجه الله، فكأنما ألقيت تلك الكتب في الآبار، وما سمع لشيء منها بعد ذلك بذكر، ولما ألفه اتهم نفسه بالإخلاص فيه فألقاه في الماء، وقال : إن ابتل فلا حاجة لي به فلم يبتل منه شيء.

روي عن عمر صاحب الأوزاعي أنه قال : عرضنا على الإمام مالك الموطأ في أربعين يوما، فقال : كتاب ألفته في أربعين سنة، أخذتموه في أربعين يوما، ما أقل ما تفقهون فيه.

وبموطأه هذا فتح باب التأليف.

جاء في الفكر السامي قال عياض في المدارك : ففتح بموطأه الباب للمؤلفين من علماء الإسلام، وعلمهم كيفية التأليف والتصنيف، وحسن التبويب، فاستحسن طريقه كل من أتى بعده ليومنا هذا فسلكوه ففاتهم بالتقدم.

فهو إمام كل مؤلف وقدوة كل مصنف، وإن ألف غيره قبله لكنهم لم يقعوا على ما وقع عليه، ولا تنبهوا إلى ما التفت إليه، فصار العلماء المؤلفون له أتباعا، والفضل له إجماعا،وقد حاز الفضل المبين في حديث: «**من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها**»[217].

وقال الحافظ ابن حجر: اعلم علمني الله وإياك أن آثار النبي ﷺ لم تكن في عصر أصحابه وكبار التابعين مدونة في الجوامع، ولا مرتبة لأمرين، أحدهما : أنهم كانوا في ابتداء الحال قد نهوا عن ذلك، كما في صحيح مسلم خشية أن يختلط بعض ذلك بالقرآن العظيم، وثانيهما : لسعة حفظهم وسيلان أذهانهم، ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار.

فأول من جمع ذلك الربيع بن صبيح، وسعيد بن أبي عروبة وغيرهما، وكانوا يصنفون كل باب على حدة، إلى أن قام كبار أهل الطبقة الثالثة، فدونوا الأحكام، فصنف الإمام مالك الموطأ، وتوخى فيه القوي من حديث أهل الحجاز، ومزجه بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين ومَن بعدهم[218].

---

(217) الفكر السامي، للحجوي ج : 2 ص : 449.
(218) هدي الساري مقدمة (فتح الباري) ص : 6.

ولقد هم أبو جعفر المنصور أن يعلق الموطأ في الكعبة ويحمل الناس على العمل به، ثم من بعده هارون الرشيد، فأبى مالك رحمه الله وقال : لا تفعل يرحمك الله يا أمير المؤمنين، فإن أصحاب رسول الله ﷺ تفرقوا في البلاد فأفتى كل في مصره بما رآه.

وهذا من تمام علمه واتصافه بالإنصاف، ومن إخلاصه وتواضعه، وعدم احتكاره للعلم لأنه يريد الله والدار الآخرة، ولا يريد الشهرة ولا التصدر.

طلب هارون الرشيد، من الإمام مالك : أن يسمعه كتابه الموطأ، فاستجاب له، وعين له وقتا فانتظره هارون فلم يأته فلما أبطأ عليه، أرسل إليه، فقال له يا أبا عبد الله : ما زلت أنتظرك منذ اليوم : فقال مالك : وأنا أيضا يا أمير المومنين مازلت أنتظرك منذ اليوم، إن العلم يؤتى ولا يأتي، وإن ابن عمك ﷺ هو الذي جاء بهذا العلم، فإن رفعتموه ارتفع، وإن وضعتموه اتضع.

ثم طلب منه أن يجعل له مجلسا خاصا يسمعه فيه الموطأ، فقال مالك رحمه الله، لا يا أمير المومنين، إن الخاص لا ينتفع به[219].

اعتناء العلماء بالموطأ

ونظرا لمكانة الكتاب وقيمته وشهرته اعتنى به جمع من العلماء والأئمة، ونال إعجابهم، ومنحه الله القبول، فتناولوه بالشرح والتحليل، والبحث والتحصيل، وأثنوا عليه ثناء كثيرا ما بين نثر ونظم.

(219) انظر كشف المغطا في فضل الموطأ، لابن عساكر، ص : 9، وترتيب المدارك ج : 1 ص : 79 و101.

قال القاضي عياض : لم يُعتَن بكتاب من كتب الحديث والعلم اعتناء الناس بالموطأ، فإن الموافق والمخالف أجمع على تقديره وتفضيله وروايته وتقديم حديثه وتصحيحه...[220].

وممن اعتنى به وشرحه :

الحافظ ابن عبد البر في كتابه التمهيد، والاستذكار، والقاضي أبو بكر ابن العربي وسماه القَبَس في شرح موطأ مالك بن أنس.

وقد ذكر القاضي عياض في المدارك عددا من أسماء هؤلاء المؤلفين والشارحين.

قال الإمام ابن كثير: وقد اعتنى الناس بكتابه (الموطأ) وعلقوا عليه كتبا جمة، ومن أجود ذلك كتابَا (التمهيد) (والاستذكار) للشيخ أبي عمر بن عبد البر النمري القرطبي رحمه الله، هذا مع ما فيه من الأحاديث المتصلة الصحيحة والمرسلة والمنقطعة، والبلاغات اللاتي لا تكاد توجد مسندة إلا على ندور[221].

قال عنه القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله تعالى في شرحه للترمذي : الموطأ هو الأصل الأول واللباب، والبخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع كمسلم والترمذي.

وقال عنه الإمام الشافعي : ما نظرت في موطأ مالك رحمه الله إلا ازددت منه فهما وعلما.

وقال : ما كتاب بعد كتاب الله تعالى أنفع من كتاب مالك رحمه الله ورضي عنه.

---

(220) انظر ترتيب المدارك، ج 1 : 105.

(221) الباعث الحثيث، في اختصار علوم الحديث ، ص : 12.

وقال أيضا : ما تحت أديم السماء كتاب أكثر صوابا بعد كتاب الله من موطأ مالك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله معلقا على كلام الإمام الشافعي: وهذا لا يعارض ما عليه أئمة الإسلام من أنه ليس بعد القرآن كتاب أصح من صحيح البخاري ومسلم...[222].

وقال الإمام ابن كثير: إن ما قاله (كلام الشافعي المتقدم) قبل البخاري ومسلم، وقد كانت كتب كثيرة مصنفة في ذلك الوقت في السنن،لابن جريح وابن إسحاق (غير السيرة) ولأبي قرة موسى بن طارق الزبيدي، ومصنف عبد الرزاق بن همام، وغير ذلك.

وكان كتاب مالك وهو (الموطأ) أجلها وأعظمها نفعا، وإن كان بعضها أكبر حجما منه وأكثر أحاديث، وقد طلب المنصور من الإمام مالك أن يجمع الناس على كتابه، فلم يجبه إلى ذلك، وذلك من تمام علمه واتصافه بالإنصاف، وقال : إن الناس قد جمعوا واطلعوا على أشياء لم نطلع عليها[223].

وقال الإمام النووي : قال العلماء : إنما قال الشافعي هذا قبل وجود صحيحي البخاري ومسلم، وهما أصح من الموطأ باتفاق العلماء[224].

وقال عنه ولي الله الدَّهْلوي : وكتاب الموطأ أصح كتب الفقه وأشهرها، وأقدمها وأجمعها، وقد اتفق السواد الأعظم من الأمة المرحومة، على العمل به، والاجتهاد في روايته ودرايته، والاعتناء بشرح مشكلاته ومعضلاته، والاهتمام باستنباط معانيه، وتشييد مبانيه[225].

---

(222) انظر مجموع الفتاوى ج : 20 ص : 320.
(223) الباعث الحثيث ، في اختصار علوم الحديث، ص : 12.
(224) تهذيب الأسماء واللغات، ج : 2 ص : 77.
(225) المسوّى ، شرح الموطأ ج : 1 ص : 63.

وهذه أبيات من قصيدة لأبي عثمان رحمه الله في الموطأ :

فبادر موطأ مالك قبل فوته ... فما بعده إن فات للعلم مطلب
ودع للموطأ كل علم تريده ... فإن الموطأ الشمس والعلم كوكب
هو الحق عند الله بعد كتابه ... وفيه لسان الصدق بالحق معرب
ومن لم تكن كتب الموطأ بيته ... فذاك من التوفيق بيت مخرب
ولو بالموطأ يعمل الناس كلهم ... لأمسوا ومامنهم على الأرض مذنب

ومن أبيات للقاضي عياض :

إذا ذكرت كتب العلوم فحيهل ... بكتب الموطأ من تصانيف مالك
أصح أحاديثا وأثبت حجة ... وأوأضحها في الفقه نهجا لسالك

رواة الموطأ :

وقد روى الموطأ عدد كبير، والمتداول الآن روايتان، إحداهما :

رواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، والثانية رواية يحيى بن يحيى الليثي البربري الأندلسي المتوفى سنة 234هـ وهو من تلاميذ مالك، رحل إليه من الأندلس، ثم عاد إليها ونشر مذهب مالك هناك.

ورواية محمد بن الحسن طبعت في الهند، وهي أقل في أبوابها وأحاديثها من رواية يحيى، ورواية يحيى أكثر تداولا في مصر وبلاد المغرب[226].

وهي المشهورة، وفي هذا يقول الإمام الشنقيطي :

وأشهر الموطآت ذكرا ... إذ كان بالصحة منها أولى
موطأ الإمام يحيى الليثي ... من كان في العزم شبيه الليثي
فهو الذي شرحه النقاد ... وانتفعت بدره العباد
وبلغت شروحه نحو المائه ... فكلها عما حواه منبئه.

(226) تاريخ التشريع الإسلامي، لمناع القطان ص : 290.

قال الزبير :

كان لمالك ابنة (واسمها فاطمة) تحفظ علمه (يعني الموطا) وكانت تقف خلف الباب فإذا غلط القارئ نقرت الباب، فيفطن مالك فيرد عليه[227].

كما قال محمد حبيب الله الشنقيطي في منظومته (دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك) :

وابنته فاطمةُ الغرّاءُ مِمَّن رواه إذ لها اعتناءُ

عدد أحاديث الموطأ :

قال أبو بكر الأبهري : جملة ما في الموطأ من الآثار عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين : ألف وسبعمائة وعشرون حديثا، المسند منها ستمائة حديث، والمرسل مائتان واثنان وعشرون حديثا، والموقوف ستمائة وثلاثة عشر، ومن قول التابعين مائتان وخمسة وثمانون[228].

والموطأ كتاب حديث وسنة وفقه، ومنهج مالك في تدوينه أن يذكر الأحاديث في الموضوع الفقهي الذي اجتهد فيه، ثم يذكر عمل أهل المدينة المجمع عليه، ثم يذكر رأي من التقى بهم من التابعين وأهل الفقه، ثم يذكر الرأي المشهور بالمدينة، فإن لم يكن شيء من ذلك بين يديه في المسألة اجتهد رأيه على ضوء ما يعلم من الأحاديث والفتاوى والأقضية، والذي يتصفح الموطأ يجد هذا النهج واضحا فيه[229].

وللإمام مالك مؤلفات أخرى، لكن لم يشتهر عنه غير الموطا[230].

---

(227) ترتيب المدارك ج : 1 ص : 48.
(228) تنوير الحوالك، شرح موطأ مالك، للإمام السيوطي، ج : 1 ص : 14.
(229) تاريخ التشريع الإسلامي، لمناع القطان، ص : 290.
(230) انظر ترتيب المدارك، ج : 109/1.

المدونة :

تعتبر المدونة، أساس الفقه المالكي عند أتباع مالك بعد الموطأ، وهي عبارة عن أسئلة كثيرة سئل عنها الإمام مالك فأجاب عنها، ورواها عنه: عبد الرحمان بن القاسم، ثم أخذها عنه عبد السلام بن سعيد التنوخي الملقب بسحنون، وقام بتدوينها وترتيب مسائلها، وتبلغ مسائلها ستا وثلاثين ألف مسألة، وهي مطبوعة تحت اسم : (المدونة الكبرى) رواية سحنون.

يقول فيها ابن رشد رحمه الله : وهي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو[231].

وسحنون هذا يعتبر من كبار فقهاء المذهب المالكي، أخذ العلم عن ابن القاسم وابن وهب، وأشهب، ثم انتهت الرياسة في العلم بالمغرب إليه، وكان فقيرا، وهو الذي قال : قبح الله الفقر، أدركنا مالكا وقرأنا على ابن القاسم، وقال أيضا : كنت عند ابن القاسم وأجوبة مالك ترد عليه، فقال لي : ما يمنعك من السماع منه، قلت: قلة الدراهم[232].

وهو الذي يرجع إليه الفضل في نشر المذهب المالكي في المغرب وكذلك أسد بن الفرات، وغيرهما من أئمة المغاربة.

الأصول التي بنى عليها مذهبه :

الأدلة التي بنى عليها مالك رحمه الله مذهبه، تصل إلى سبعة عشردليلا، وهي كما يلي :

1 - نص الكتاب.
2 - وظاهر الكتاب، أعني : العموم.

---

(231) تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 295.
(232) انظر وفيات الأعيان ، ج : 3 (ترجمة سحنون).

3 - ودليل الكتاب، أعني : مفهوم المخالفة.
4 - ومفهوم الكتاب، أعني : المفهوم بالأولى.
5 - والتنبيه، أعني التنبيه على العلة.

ومن السنة أيضا مثل هذه الخمسة.

والإجماع، والقياس، وعمل أهل المدينة، وقول الصحابي، والاستحسان، وسد الذرائع، والاستصحاب.

وأما مراعاة الخلاف، فتارة يعمل به وتارة لا يعمل به.

وكان رحمه الله، يكثر من العمل بسد الذرائع، حتى اعتبره بعض العلماء من خصوصيات مذهبه، ومن الأمثلة على ذلك :

أنه أفتى لمن رأى هلال شوال وحده، ألا يفطر، حتى لا يكون ذريعة إلى إفطار الفساق محتجين بما احتج به.

وأيضا لما هم الرشيد أو المهدي أو المنصور أن يعيد بناء الكعبة على ما فعله ابن الزبير رضي الله عنه، استشار الإمام مالكا، فقال له مالك : ناشدتك الله يا أمير المومنين ألا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم إلا نقضه وبناه، فتذهب هيبته من قلوب الناس[233].

فصرفه عما أراد حتى لا يكون سنة متبعة.

وقد جمع هذه الأدلة الشيخ : أحمد بن محمد بن أبي كف رحمه الله تعالى في منظومته التي قال فيها :

الحمد لله الذي قد فهما ... دلائل الشرع العزيز العلما
ثم الصلاة والسلام أبدا ... على النبي الهاشمي أحمدا

(233) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 294 وتفسير القرطبي، الآية : 127، من سورة البقرة. والبداية والنهاية، لابن كثير ج : 5 ص : 767 ، وفتح الباري، ج : 4 ص : 242.

وآله الغر وصحبه الكرام ... والتابعين لهم على الدوام
وبعد فالقصد بذا النظم الوجيز ... ذكر مباني الفقه في الشرع العزيز
فقلت والله المعين أستعين ... وأستمد منه فتحه المبين
أدلة المذهب مذهب الأغر ... مالك الإمام ستة عشر
نص الكتاب ثم نص السنة ... سنة من له أتم المنة
وظاهر الكتاب والظاهر من ... سنة من بالفضل كله قمن
ثم الدليل من كتاب الله ... ثم دليل سنة الأواه
ومن أصوله التي بها يقول ... تنبيه قرآن وسنة الرسول
وحجة لديه مفهوم الكتاب ... من سنة الهادي إلى نهج الصواب
ثمت تنبيه كتاب الله ثم ... تنبيه سنة الذي جاها عظم
ثمت إجماع وقيس وعمل ... مدينة الرسول أسخى من بذل
وقول صحبه والاستحسان ... وهو اقتفاء ما له رجحان
وقيل بل هو دليل ينقذف ... في نفس من بالاجتهاد متصف
ولكن التعبير منه يقصر ... عنه فلا يعلم كيف يخبر
وسد أبواب ذرائع الفساد ... فمالك له على ذه اعتماد
وحجة لديه الاستصحاب ... ورأيه في ذاك لا يعاب
وخبر الواحد حجة لديه ... بعض فروع الفقه تنبني عليه
وبالمصالح عنيت المرسله ... له احتجاج حفظته النقله
ورعي خلف كان طورا يعمل ... به وعنه كان طورا يعدل
وهل على مجتهد رعي الخلاف ... يجب أم لا قد جرى فيه اختلاف
وهذه خمس قواعد ذكر ... أن فروع الفقه فيها تنحصر
وهي اليقين حكمه لا يرفع ... بالشك بل حكم اليقين يتبع
وضرر يُزال والتيسير مع ... مشقة يدور حيثما تقع
وكل ما العادة فيه تدخل ... من الأمور فهي فيه تعمل
وللمقاصد الأمور تَتْبع ... وقيل ذي إلى اليقين ترجع
وقيل للعرف وذي القواعد ... خَمْستُها لا خلف فيها وارد

قد تمَّ ما رمت ولله الحميد ... منيَ حمد دائم ليس يبيد
وأطيب الصلاة مع أسنى السلام ... على محمد وآله الكرام

وقد شرح هذه المنظومة العلامة محمد يحيى الولاتي في كتابه المسمى «**إيصال السالك إلى أصول الإمام مالك**».

محنة الإمام مالك :

ذكر علماء التاريخ الإسلامي أن الإمام مالكا رحمه الله نزلت به محنة تعرض خلالها للضرب والتعذيب في العصر العباسي في عهد أبي جعفر المنصور، واختلفوا في سبب هذه المحنة، وأشهر الأسباب فتواه في طلاق المكره، فإنه كان يحدث بحديث : «**ليس على مستكره طلاق**».

والمنصور لا يريده أن يحدث بهذا الحديث كيلا يتخذه مخالفوه ذريعة للتخلص من البيعة ما داموا مكرهين عليها، لأن لازم هذه الفتيا أن أيمان المكره ليست شيئا أيضا، وقد صادف تحديث الإمام مالك بهذا الحديث خروج محمد بن عبد الله بن حسن العلوي الملقب بـ (النفس الزكية) بالمدينة المنورة على أبي جعفر المنصور، وقد كان أنصاره يتخذون من هذا الحديث ذريعة لإبطال بيعة العباسيين، ويقولون : إنها أخذت كرها، فنهاه المنصور عن التحدث بهذا الحديث، ودس له من يسأله عنه، فحدث به مالك على رءوس الناس، فغضب جعفر بن سليمان (والي الخليفة المنصور على المدينة) فدعاه واحتج عليه بما وصل إليه عنه فجرده، وضربه بالسياط ضربا شديدا حتى انخلعت كتفه، وحمل على بعير وطيف به في الأسواق، فجعل يقول:

من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا مالك بن أنس، طلاق المكره ليس بشيء، فبلغ ذلك جعفر بن سليمان الأمير، فقال : أدركوه أنزلوه[234].

(234) انظر سير أعلام النبلاء، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك)، والبداية والنهاية، ج : 7 (أحداث سنة خمس وأربعين ومائة). وحلية الأولياء، ج : 6 (ترجمة الإمام مالك).

وكان لهذا الضرب الشديد، والمشهد الأليم، الذي نزل بإمام المدينة، وقع سيئ في نفوس العامة والخاصة، مما أثار حقدهم وسخطهم على العباسيين وولاتهم، فامتلأت قلوب محبي الإمام مالك كراهية لهم ولولاتهم.

قال الفضيل بن زياد : سألت أحمد بن حنبل عن ضرب مالك، فقال: ضربه بعض الولاة، في طلاق المكره، وكان لا يجيزه.

ولما علم أبو جعفر المنصور بذلك، أرسل في طلبه فاستقبله بإجلال وإكبار وأكرم وفادته، واعتذر إليه، فقال له الإمام مالك : عفا الله عنك ووصلك.

ورد أن مالكا رحمه الله لما ضرب ونيل منه حمل مغشيا عليه، فدخل الناس عليه فأفاق وقال : أشهدكم أني جعلت ضاربي في حل، فسئل بعد ذلك، فقال : خفت أن أموت فألقى النبي ﷺ فأستحيي منه أن يدخل بعض آله النار بسببي.

وذكر أن المنصور أقاده من جعفر بن سليمان، وأرسله إليه ليقتص منه، فقال له : أعوذ بالله، والله ما ارتفع منها سوط عن جسمي إلا وقد جعلته في حل لقرابته من رسول الله ﷺ[235].

هكذا ابتلي وامتحن هذا الإمام العظيم، ولكنه نجح في هذا الامتحان، فكظم غيظه، وأظهر صبره، وبذل عفوه.

ولم تزده هذه المحنة عند الناس إلا محبة ورفعة وإجلالا، وكأن تلك السياط كانت حليا حلي بها.

(235) انظر ترتيب المدارك، ج : 124/1.

وفاة الإمام مالك :

توفي رحمه الله بالمدينة المنورة سنة تسع وسبعين ومائة من الهجرة النبوية، ودفن بالبقيع، وله خمس وثمانون سنة، وقيل إنه بلغ التسعين.

قال الإمام ابن كثير : ولما احتضر تشهد شهادة، قال أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ﷺ ثم جعل يقول : ﴿**لله الأمر من قبل ومن بعد**﴾ [الروم الآية : 3]. ثم قبض في ليلة أربع عشرة من صفر، وقيل من ربيع الأول من هذه السنة وله خمس وثمانون سنة، قال الواقدي : بلغ تسعين سنة، ودفن بالبقيع[236].

حدث القعنبي قال : دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلمت عليه ثم جلست فرأيته يبكي، فقلت : يا أبا عبد الله ما الذي يبكيك؟ قال فقال لي : يا ابن قعنب، ومالي لا أبكي ومن أحق بالبكاء مني، والله لوددت أني ضربت لكل مسألة أفتيت فيها برأيي بسوط سوطا، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه، وليتني لم أفت بالرأي أو كما قال[237].

ذات ليلة كان الإمام مالك بن أنس نائما فرأى ملك الموت في المنام فسأله : يا ملك الموت كم بقي من عمري ؟ فأشار ملك الموت بأصابعه الخمسة، فعاد الإمام مالك يتساءل : كم تكون هذه الخمسة ؟ خمسة أعوام ؟ أم خمسة أشهر؟ أم خمسة أسابيع أم خمسة أيام؟ لكن الإمام مالكا استيقظ من نومه قبل أن يلقى جوابا من ملك الموت، وانطلق إلى محمد بن سيرين وهو عالم في تفسير الرؤى فقص عليه رؤياه، فتبسم ابن سيرين وقال :

---

(236) البداية والنهاية، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

(237) وفيات الأعيان، لابن خلكان ج : 2 (ترجمة الإمام مالك). واعلام الموقعين (60/1).

يا إمام دار الهجرة ليست أعواما ولا شهورا ولا أسابيع ولا أياما، وإنما أراد ملك الموت أن يقول لك ردا على سؤالك : هي خمسة أمور من الغيب لا يعلمهن إلا علام الغيوب وهي في قوله تعالى : ﴿**إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ما ذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير**﴾ [لقمان الآية : 33][238].

ورد أنه رئي في المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي، قيل بماذا ؟ قال : بكلمة عثمان بن عفان التي كان يقولها إذا رأى الميت : سبحان الحي الذي لا يموت[239].

ولما مات رثاه خلق كثير، وممن رثاه أبو محمد جعفر السراج بقوله :

سقى جدثا ضم البقيع لمالك ... من المزن مرعاد السحائب مبراق
إمام موطاه الذي طبقت به ... أقاليم في الدنيا فساح وآفاق[240].

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جنانه.

(238) الأئمة الأربعة، لعبد العزيز الشناوي، ص : 25.
(239) انظر ترتيب المدارك، ج : 149/2.
(240) انظر التتمة في وفيات الأعيان، ج : 2 (ترجمة الإمام مالك).

الإمام الشافعي فقيه مصر (150-204 هـ)

نسبه :

هو الإمام الجليل ناصر السنة محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع، يلتقي مع النبي ﷺ في عبد مناف.

والشافعي نسبة إلى جده : شافع بن السائب.

مولده ونشأته :

ولد الإمام الشافعي رحمه الله، سنة خمسين ومائة من الهجرة النبوية.

وقيل : إنه ولد في اليوم الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة[241].

وكانت ولادته بغزة، وقيل : بعسقلان من أرض فلسطين، وقيل : باليمن.

مات أبوه وهو صغير، فكفلته أمه وقامت على تربيته، فتوجهت به إلى مكة المكرمة (مكان أصله) وهو ابن سنتين، وكانت نشأته بها.

وكان يتنقل بين اليمن ومكة المكرمة، والمدينة المنورة، والعراق، واستقر بمكة بعد المحنة التي نزلت به بنجران، فأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، وظل يلقي دروسه بمكة مدة طويلة، تذكر بعض الروايات أنها بلغت تسع سنين.

وأخيرا نزل بالديار المصرية واستقر بها إلى أن مات.

---

(241) وفيات الأعيان، ج : 2 ص : 311 (ترجمة الإمام الشافعي). وتهذيب الأسماء واللغات، ج : 45/1 (ترجمة الإمام الشافعي).

طلبه للعلم :

بدأ حياته العلمية بتعلم كتاب الله العزيز.

حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر، وأفتى وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل ابن ثماني عشرة سنة[242].

وكان رحمه الله حريصا على التمكن من اللغة العربية، ولهذا الغرض رحل إلى قبيلة هذيل، التي كانت من أفصح العرب، وأقام بها نحوا من عشر سنين، فنهل من لغتها وتعلم من شعرها الكثير.

وكان في حرصه على طلب العلم أشد من حرص أبناء الدنيا على دنياهم ، قال المزني رحمه الله : قيل لمحمد بن إدريس الشافعي : كيف شهوتك للعلم ؟ قال أسمع الحرف مما لم أسمعه، فتود أعضائي أن لها أسماعا تتنعم به مثل ما تنعمت الأذنان قيل : وكيف حرصك عليه ؟ قال: حرص الجَموع المَنوع على بلوغ لذاته في المال، قيل : كيف طلبك له ؟ قال : طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره[243].

وكان قد جزأ الليلة ثلاثة أجزاء، الثلث الأول يكتب فيه، والثاني يصلي فيه، والثالث ينام فيه[244].

سرعة حفظه :

أعطي الإمام الشافعي ذكاء عظيما، وأكرم بذاكرة قوية، فكان سريع الحفظ ، وقد حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين، وحفظ موطأ الإمام مالك وهو ابن عشر.

---

(242) البداية والنهاية ج : 7 (ترجمة الإمام الشافعي).
(243) صلاح الأمة، في علو الهمة، ج : 1 ص : 228.
(244) تهذيب الأسماء واللغات، ج : 1 ص : 54.

وحينما قرأ الموطأ على الإمام مالك من حفظه أعجبته قراءته وهمته، قال نظر إلي ساعة، وكانت له فراسة، فقال لي : ما اسمك ؟ قلت : محمد، قال : يا محمد اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن[245].

وفي رواية أنه قال له : إن الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا، فلا تطفئه بالمعصية[246].

فكان لا يسمع شيئا إلا حفظه، ولذلك حكي عنه أنه كان إذا دخل السوق يسد أذنيه خوفا من أن يعلق بذهنه كل ما يسمع، كما كان يحفظ كل ما يرى، وحكي عنه أنه كان إذا فتح كتابا ليقرأ فيه يغطي بطرف كمه الأواخر حتى لا تختلط عليه بالأوائل.

يحكي عن نفسه فيقول : كنت يتيما في حجر أمي فدفعتني إلى الكتاب، و لم يكن عندها ما تعطي المعلم، فكان المعلم قد رضي مني أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن، دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء، وكنت أسمع الحديث أو المسألة فأحفظها..[247].

وحين شعر بحفظه بدأ في التراجع، شكا ذلك إلى شيخه وكيع بن الجراح، فأرشده إلى ترك المعاصي

وفي ذلك يقول :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ... ونور الله لا يهدى لعاصي

(245) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 223.
(246) تهذيب الأسماء واللغات، جـ : 47/1 (ترجمة الإمام الشافعي).
(247) انظر قصته في جامع بيان العلم وفضله، ج : 1 ص : 118، وترتيب المدارك ج : 222/1.

شيوخه :

إن رجلا كالشافعي في علمه وتفوقه لا بد أن يكون قد أخذ عن خيرة الشيوخ والعلماء، وصفوة الأساتذة والفقهاء في عصره، وقديما قالوا : «ذاك الشبل من ذاك الأسد».

من شيوخه الذين تلقى عنهم العلم : الإمام مالك، وهو أكبر شيوخه، وقد لازمه تسع سنين يأخذ عنه الفقه والحديث إلى أن مات، ولم تمنعه ملازمته للإمام مالك من السفر والقيام ببعض الرحلات العلمية في البلاد الإسلامية، وزيارته لأمه بمكة المكرمة.

ومن شيوخه أيضا : مسلم بن خالد، ويحيى بن حسان، ومحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وعمر بن أبي سلمة، ومحمد بن خالد الزنجي، والحارث بن شريح البقال، ووكيع بن الجراح الكوفي، وغيرهم.

رحل إلى العراق بعد موت شيخه مالك، فنزل عند محمد بن الحسن ببغداد، فأخذ عنه فقه العراقيين، فاجتمع له بذلك فقه الحجاز، وفقه العراق، أي الفقه الذي يغلب عليه النقل، وهو فقه أهل الحجاز كمالك، والفقه الذي يغلب عليه العقل، وهو فقه أهل العراق كأبي حنيفة.

وكان رحمه الله يجل شيوخه ويحترمهم، قال عن شيخه مالك : كنت أقلب الصفحة بين يدي مالك صفحا رقيقا هيبة له، لئلا يسمع ورقها[248]. وكان لا يعبر عنه إلا بالأستاذ.

تلاميذه :

من تلاميذه : الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وهما من أجل تلاميذه، والحسن بن علي الكرابيسي، والحسن بن الصباح

(248) صلاح الأمة، في علو الهمة، ج : 665/5.

الزعفراني، وحرملة بن يحيى، وإسماعيل بن يحيى المزني، والربيع بن سليمان المرادي، وأبو ثور الكلبي، والحارث بن شريح، وغيرهم.

كما أخذ عنه بعض أصحاب مالك، منهم عبد الرحمان بن القاسم ، وأشهب بن عبد العزيز، وابن المواز.

انتشار مذهبه، وأتباعه :

قال ابن خلدون : وأما الشافعي، فمقلدوه بمصر أكثر مما سواها، وقد كان انتشر مذهبه بالعراق، وخراسان، وما وراء النهر، وقاسموا الحنفية في الفتوى والتدريس، في جميع الأمصار، وعظمت مجالس المناظرات بينهم، وشحنت كتب الخلافيات بأنواع استدلالاتهم، ثم درس ذلك كله بدروس المشرق وأقطاره.

وكان الإمام محمد بن إدريس الشافعي، لما نزل على بني عبد الحكم بمصر، أخذ عنه جماعة من بني عبد الحكم، وأشهب، وابن القاسم، وابن المواز، وغيرهم، ثم الحارث بن مسكين وبنوه...[249].

وقال القاضي عياض :

وأما الشافعي فكثر أتباعه وظهر مذهبه ظهور مذهبَيْ مالك وأبي حنيفة قبله، وكان أول ظهوره بمصر، وكثر أصحابه بها مع المالكية ، ثم بالعراق وبغداد، وغلب عليها وعلى كثير من بلاد خراسان، والشام واليمن إلى وقتنا هذا، ودخل ما وراء النهر وبلاد فارس، ودخل شيء منه بلاد إفريقية، والأندلس بأخَرةٍ[250] بعد الثلاثمائة[251].

---

(249) مقدمة ابن خلدون ، ص : 497.

(250) بلدة بأذربيجان، انظر معجم البلدان، لياقوت الحموي.

(251) ترتيب المدارك، جـ : 1 ص : 66.

ثناء الأئمة عليه :

كان الإمام الشافعي من علماء الدنيا وفقهائها وأدبائها وفصحائها، ولذلك أثنى عليه غير واحد من الأئمة الكبار، وأشاد بذكره جمع من الأخيار.

ومن هؤلاء الأئمة : عبد الرحمان بن مهدي، وهو الذي طلب منه أن يكتب له كتابا في الأصول، فكتب له الرسالة، وكان يدعو له في صلاته.

ومن الذين أثنوا عليه، شيخه : مالك بن أنس، قال عبد الرحمان بن مهدي : سمعت مالكا يقول : ما يأتيني قرشي أفهم من هذا الفتى. (يعني الشافعي)[252].

وقال داود بن علي الظاهري : للشافعي من الفضائل ما لم يجتمع لغيره، من شرف نسبه، وصحة دينه ومعتقده، وسخاوة نفسه، ومعرفته بصحة الحديث وسقمه، وناسخه ومنسوخه، وحفظه الكتاب والسنة، وسيرة الخلفاء، وحسن التصنيف، وجودة الأصحاب والتلامذة، مثل : أحمد بن حنبل في زهده وورعه، وإقامته على السنة.

وقال أبو عبيد : ما رأيت أفصح ولا أعقل ولا أورع من الشافعي.

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ما عرفت ناسخ الحديث ومنسوخه حتى جالست الشافعي. وقال : لقد كان الفقه قفلا ففتحه الله بالشافعي.

وقال : الشافعي فيلسوف في أربعة أشياء : في اللغة، واختلاف الناس، والمعاني، والفقه[253].

وجلس مرة مع الشافعي فجاء أحد إخوانه يعتب عليه تركه مجلس ابن عيينة وجلوسه إلى هذا الأعرابي (الشافعي) فقال له أحمد : اسكت إنك

---

(252) مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 139.

(253) سير أعلام النبلاء، ج : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).

إن فاتك حديث بعلو وجدته بنزول، وإن فاتك عقل هذا أخاف أن لا تجده، ما رأيت أحدا أفقه في كتاب الله من هذا الفتى.

وحينما قال له ابنه : يا أبت سمعتك تكثر الدعاء للشافعي، فمَن هذا الشافعي، قال : كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية لِلْبَدَن، فانظر فهل لهذين من خلف أو منهما عوض؟.

شبهه بالشمس لأنه ينير للناس الطريق بعلمه، والعلماء هم شموس هذه الدنيا، وشبهه بالعافية، لأنه يزيل ما في النفوس من أمراض، والعلماء أطباء القلوب والأرواح.

جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها**»[254].

قال الإمام أحمد فعمر بن عبد العزيز على رأس المائة الأولى، والشافعي على رأس المائة الثانية[255].

وللإمام السيوطي منظومة سمّاها : «**تحفة المهتدين بأسماء المجددين**» ختم بهم كتابه «التنبئة فيمن يبعثه الله على رأس المائة» ذكر فيها أن المجدد الأول على رأس المائة الأولى هو خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز، وأن الشافعي هو المجدد على رأس المائة الثانية.

قال فيها :

فكان عند المائة الأولى عمر ... خليفة العدل بإجماع وقر
والشافعي كان عند الثانيه ... لما له من العلوم الساريه

وقال إسحاق بن راهويه : كنت عند أحمد بمكة المكرمة، فقال لي : تعال أريك رجلا لم تر عينك مثله، فأراني الشافعي.

---

(254) سنن أبي داود : (كتاب الملاحم).
(255) البداية والنهاية لابن كثير ج : 7 (ترجمة الإمام الشافعي).

وقال الحميدي شيخ البخاري : سيد الفقهاء محمد بن إدريس الشافعي.

وقال يونس بن عبد الأعلى : كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت : هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت : هو بهذا أعلم، وإذا تكلم في الفقه قلت : هو بهذا أعلم.

وقال عنه الإمام الذهبي: وإمامنا فبحمد الله ثبت في الحديث، حافظ لما وعى، عديم الغلط موصوف بالإتقان، متين الديانة، فمن نال منه بجهل وهوى ممن عُلم أنه منافس له فقد ظلم نفسه، ومقتته العلماء، ولاح لكل حافظ تحامله، وجر الناس برجله، ومن أثنى عليه واعترف بإمامته وإتقانه، وهم أهل العقد والحل قديما وحديثا فقد أصابوا وأجملوا وهدوا ووفقوا...[256].

وقال ابن خلكان : وقد اتفق العلماء قاطبة من أهل الحديث والفقه والأصول واللغة والنحو، وغير ذلك، على ثقته، وإمامته، وعدالته، وزهده وورعه، ونزاهة عرضه، وعفة نفسه، وحسن سيرته، وعلو قدره وسخائه[257].

وقال عنه يحيى بن معين : لو كان الكذب له مباحا مطلقا لكانت مروءته تمنعه من أن يكذب.

وقال يونس الصدفي : ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال : ألا يستقيم أن نكون إخوانا وإن لم نتفق في مسألة[258].

---

(256) سير أعلام النبلاء جـ : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).
(257) وفيات الأعيان ، جـ : 2 (ترجمة الإمام الشافعي).
(258) سير أعلام النبلاء، للذهبي جـ : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).

ومما يبين علو منزلته عند العلماء حرصهم على الاستفادة من علمه، فقد ورد أن إسحاق بن راهويه تزوج بامرأة رجل كانت عنده كتب الشافعي (مات عنها) لم يتزوج بها إلا للكتب[259].

وكما قال أبو بكر بن دريد (صاحب المقصورة) :

فمن يك علم الشافعي إمامه فمرتعه في ساحة العلم واسع

وفي الحديث : «**لا تسبوا قريشا فإن عالمها يملأ الأرض علما اللهم إنك إذا أذقت أولها عذابا ووبالا فأذق آخرها نوالا**»[260].

قال أبو نعيم عبد الملك بن محمد الإسفراييني : لا ينطبق هذا إلا على محمد بن إدريس الشافعي، حكاه الخطيب[261].

وقال أبو بكر الجزائري : وكونه هو المقصود من هذا الخبر أمر لا يجادل فيه، إذ لم ينتشر لعالم قبله ولا بعده من علماء قريش علم كما انتشر علم الشافعي حيث طبق مشارق الأرض ومغاربها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[262].

علمه بالفراسة :

كان رحمه الله خبيرا بعلم الفراسة بل كان علما من أعلامها، وأحد المهتمين بها.

---

(259) انظر مناقب الإمام الشافعي،لابن كثير، ص : 120.

(260) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده، والحاكم بنحوه في المستدرك، وضعفه الألباني : «سلسلة الأحاديث الضعيفة ج : 1، ص 390».

(261) البداية والنهاية، لابن كثير، ج : 7 (ترجمة الإمام الشافعي).

(262) العلم والعلماء، ص : 290.

قال رحمه الله : خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى جمعتها وكتبتها[263].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : وكان إياس بن معاوية من أعظم الناس فراسة، وله الوقائع المشهورة، وكذلك الشافعي رحمه الله، وقيل : إن له فيها تآليف[264].

وقال القاضي عياض : كان الشافعي صاحب فراسة، فقيل له في ذلك، فقال : أخذتها من مالك[265].

ومن طرائف ما يحكى عنه في الفراسة قوله :

خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها، ثم لما حان انصرافي مررت على رجل في الطريق، وهو محتب بفناء داره، أزرق العينين ناتئ الجبهة سناط (والسناط بكسر السين الذي لا لحية له) فقلت: هل من منزل ؟ فقال : نعم ، قال (الشافعي) : وهذا النعت أخبث ما يكون في الفراسة، فأنزلني فرأيته أكرم ما يكون من رجل، بعث إلي بعشاء وطيب وعلف لدابتي وفراش ولحاف، فجعلت أتقلب الليل أجمع، ما أصنع بهذه الكتب إذ رأيت النعت في هذا الرجل ؟ فرأيت أكرم رجل فقلت :

أرمي بهذه الكتب، فلما أصبحت قلت للغلام : أسْرِج (يعني الدابة) فأسرج فركبت ومررت عليه وقلت له : إذا قدمت مكة ومررت بذي طوى فاسأل عن محمد بن إدريس الشافعي (لأنه يريد أن يرد له الجميل) فقال لي الرجل : أمَوْلًى لأبيك أنا ؟ قال : قلت : لا قال فهل كانت لك عندي نعمة ؟ فقلت : لا، فقال : أين ما تكلفته لك البارحة ؟ قلت : وما

(263) سير أعلام النبلاء، للذهبي ج : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).
(264) مدارج السالكين، ج : 456/2 (منزلة الفراسة).
(265) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 126.

هو ؟ قال : اشتريت لك طعاما بدرهمين، وإداما بكذا وكذا، وعطرا بثلاثة دراهم، وعلفا لدابتك بدرهمين، وكراء الفرش واللحاف درهمان، قال قلت : يا غلام (غلام الشافعي) أعطه، فهل بقي من شيء؟ قال نعم : كراء البيت فإني قد وسعت عليك وضيقت على نفسي، قال الشافعي : فغبطت بتلك الكتب، (لأنها لم تخيب ظنه) فقلت له بعد ذلك : هل بقي لك من شيء ؟ قال : امض أخزاك الله، فما رأيت قط شرا منك[266].

وقال الربيع : اشتريت للشافعي طيبا بدينار فقال : ممن اشتريته ؟ قلت من ذاك الأشقر الأزرق، قال الأشقر الأزرق رده، ما جاءني خير قط من أشقر[267].

وعن حرملة بن يحيى قال : سمعت الشافعي يقول : احذر الأعور، والأحول، والأحدب، والأشقر، والكوسج، وكل من به عاهة في بدنه، وكل ناقص الخَلق فاحذره، فإنه صاحب التواء، ومعاملته عسرة[268].

روي عن الشافعي ومحمد بن الحسن أنهما كانا بفناء الكعبة ورجل على باب المسجد فتفرسا فيه، فقال أحدهما أراه نجارا، وقال الآخر: بل حدادا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسأله فقال : كنت نجارا وأنا اليوم حداد[269].

من كلامه وحِكَمه :

نطق الإمام الشافعي رحمه الله بحكم كثيرة، وفوائد عديدة، نُقل إلينا بعضها.

---

(266) انظر حلية الأولياء، ج : 9 ص : 144، ومناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 85.
(267) سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي ج : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).
(268) مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 235.
(269) الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، في تفسير كلمة (المتوسمين) من سورة الحجر، والروح، لابن القيم فصل في الفرق (بين الفراسة والظن) بتصرف.

منها قوله رحمه الله : لا تسكن بلدة لا يكون فيها عالم ينبئك عن دينك، ولا طبيب ينبئك عن أمر بدنك.

وقال : سياسة الناس أشد من سياسة الدواب.

قال الربيع : سمعت الشافعي قال لبعض أصحاب الحديث : أنتم الصيادلة، ونحن الأطباء[270].

وكان يقول : إذا رأيت رجلا من أصحاب الحديث، فكأنما رأيت رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ جزاهم الله خيرا، حفظوا لنا الأصل، فلهم علينا الفضل[271].

وقال : من نظف ثوبه قل همه، ومن طاب ريحه زاد عقله.

وقال أيضا : من طلب الرئاسة فرت منه، وإذا تصدر الحدث فاته علم كثير[272].

وقال : ليس من المروءة أن يخبر المرء عن سنه، لأنه إن كان صغيرا استحقروه، وإن كان كبيرا استهرموه[273].

وقال : لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص من مروءتي لما شربته، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة. وقال : ما حلفت بالله صادقا ولا كاذبا قط.

وقال : التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم اللئام.

وقال : من وعظ أخاه سرا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه.

---

(270) سير أعلام النبلاء، للذهبي ج : 8.
(271) البداية والنهاية، ج : 7 ترجمة (الإمام الشافعي).
(272) صفة الصفوة، لابن الجوزي ج : 2 ص : 117.
(273) صفة الصفوة ج : 2 ص : 169.

وقال : لا يمكن الله للرجل حتى يبتلى، فإن الله سبحانه وتعالى ابتلى الأنبياء فلما صبروا مكنهم.

وقال : وددت أن الناس تعلموا هذا العلم، ولا ينسب إلي شيء منه أبدا، فأؤجر عليه ولا يحمدونني[274].

وقال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم ولا ينسب إلي منه شيء، وما ناظرت أحدا قط فأحببت أن يخطئ، وقال : ما ناظرت أحدا قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان وتكون عليه رعاية من الله تعالى[275].

وقال أيضا : رأيي صواب يحتمل الخطأ، ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب.

وقال : ما ناظرني عالم إلا غلبته، ولا ناظرني جاهل إلا غلبني[276].

وقال : إذا خفت على عملك العجب، فانظر رضا من تطلب؟ وفي أي ثواب ترغب ؟ ومن أي عقاب ترهب ؟ وأي عافية تشكر ؟ وأي بلاء تذكر ؟ فإنك إذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال، صغر في عينيك عملك.

وسئل رحمه الله عن حاله فقال :

كيف حال من يصبح ويطالبه ثمانية :

كتاب ربه بالعمل، وسنة نبيه بالمتابعة، ونفسه بالشهوات، وشيطانه بالمخالفات، وعياله بالقوت، وهواه بطول الأمل، والدهر بصروفه، وملك الموت بقبض روحه.

---

(274) البداية والنهاية، لابن كثير ج : 7 (ترجمة الإمام الشافعي).
(275) انظر تهذيب الأسماء واللغات، ج : 54/1 والمدخل، لابن الحاج، ج : 1 ص : 119.
(276) الصوارم والأسنة، للشنقيطي، ص : 112.

وقال : إذا كثرت عليك الحوائج فابدأ بأهمها.

وقال : زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس. وقال أيضا : زينة العلماء الورع والحلم. وقال : أزين شيء بالعلماء الفقر مع القناعة، والرضا بهما. وقال : فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهال فقر اضطرار.

وقال : طلب العلم أفضل من صلاة النافلة. وقال : من لا يحب العلم فلا خير فيه، ولا يكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة.

وقال : من حضر العلم بلا محبرة وورق، كان كمن حضر الطاحون بغير قمح.

وقال : لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذل النفس وضيق العيش وخدمة العلماء أفلح.

وقال : لولا أصحاب المحابر لخطبت الزنادقة على المنابر

وقال حرملة بن يحيى : سمعت الشافعي يقول : سميت ببغداد ناصر السنة.

وقال : لو لا أصحاب الحديث لكنا بياع الفول.

وقال : المراء في الدين يقسي القلب، ويورث الضغائن.

وقال : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة[277].

وقال : لولا صحبة الأخيار، والاستغفار بالأسحار، ما أحببت البقاء في هذه الدار.

---

(277) مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 238.

وقال : الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط.

وقال : من استغضب فلم يغضب فهو حمار، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان.

وقال : لا تشاور من ليس في بيته دقيق، فإنه مدله العقل.

وقال في حق السنة : من قال إن السنة كلها اجتمعت عند رجل واحد فسق، ومن قال : إن شيئا منها فات الأمة فسق.

وقال : من حفظ القرآن عظمت قيمته، ومن طلب الفقه نبل قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

من شعره رحمه الله :

تميز الإمام الشافعي رحمه الله عن الأئمة الآخرين بنظم الشعر وقوله، فقد كان شاعرا متميزا معتمدا في هذا الباب، كما كان مرجعا في اللغة العربية، فقد كان أهل اللغة يحضرون مجلسه لا لشيء، إلا لسماع لغته.

قال عنه الأصمعي : صححت أشعار الهذليين على شاب من قريش بمكة يقال له : محمد بن إدريس[278].

ومعظم شعره في الحكم والزهد والورع، والتعبير عن ما يعانيه أغلب الناس في حياتهم الاجتماعية.

تناقل الناس شعره، وتغنوا به، واستنبطوا منه الفوائد، واحتل مرتبة عالية في قلوبهم، وذلك راجع إلى منزلة قائله والمتكلم به.

---

(278) انظر تهذيب الأسماء واللغات، ج : 1 ص : 50 (ترجمة الإمام الشافعي).

ومع أن الإمام الشافعي كان شاعرا مقتدرا فإنه كان ينأى بنفسه عن نظم الشعر ما استطاع إلى ذلك سبيلا

وهو القائل :

ولولا الشعر بالعلماء يُزري ... لكنت اليوم أشعر من لبيد

وهذه مختارات من شعره :

قال رحمه الله عن العلم وصاحبه :

رأيت العلم صاحبه كريم ... ولو ولدته آباء لئام
وليس يزال يرفعه إلى أن ... يعظم أمره القوم الكرام
ويتبعونه في كل حال ... كراع الضأن تتبعه السوام
فلولا العلم ما سعدت رجال ... ولا عرف الحلال ولا الحرام

وقال عن الحظ :

تموت الأسد في الغابات جوعا ... ولحم الضأن يرمى للكلاب
فذو جهل ينام على حرير ... وذو علم ينام على التراب

وقال عن محن الزمان :

محن الزمان كثيرة لا تنقضي ... وسروره ياتيك كالأعياد
ملك الأكابر فاسترق رقابهم ... وتراه رقا في يد الأوغاد

وقال عن الدنيا :

وما هي إلا جيفة مستحيلة ... عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها ... وإن تجتذبها نازعتك كلابها

وقال عن الصمت :

قالوا سكت وقد خوصمت قلت لهم ... إن الجواب لِباب الشر مفتاح
الصمت عن جاهل أوأحمق شرف ... وفيه أيضا لصون العرض إصلاح
أما ترى الأسد تخشى وهي صامتة ... والكلب يخسى لعمري وهو نباح

وقال عن فاحشة الزنا :

عفوا تعف نساؤكم في المحرم ... وتجنبوا ما لا يليق بمسلم
إن الزنا دَيْن فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
يا هاتكا حرم الرجال وقاطعا ... سبل المودة عشت غير مكرم
لو كنت حرا من سلالة ماجد ... ما كنت هتاكا لحرمة مسلم
من يزن يزن به ولو بجداره ... إن كنت ياهذا لبيبا فافهم

***

من يزن في بيت غيره بألفي درهم ... في بيته يزنى بغير الدرهم

وقال عن عزة النفس :

همتي همة الملوك ونفسي ... نفس حر ترى المذلة كفرا
أنا إن عشت لست أعدم قوتا ... وإن مت لست أعدم قبرا

وقال عن الكتابة :

العلم صيد والكتابة قيده ... قيد صيودك بالحبال الواثقه
فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الخلائق طالقه

وقال عن حفظه :

علمي معي حيثما يمت ينفعني ... قلبي وعاء له لا بطنُ صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي ... أوكنت في السوق كان العلم في السوق

وقال عن أدب النصيحة :

تعمدني بنصحك في انفراد ... وجنبني النصيحة في الجماعه
فإن النصح بين الناس نوع ... من التوبيخ لا أرضى استماعه
فإن خالفتني وعصيت أمري ... فلا تجزع إذا لم تعط طاعه

ولما دخل الإمام الشافعي مصر اجتمع الناس حوله وصاروا يتخففون من قول مالك وأبي حنيفة، جعل أشهب يدعو عليه في سجوده ويقول : اللهم أمت الشافعي وإلا ذهب علم مالك.

فرد عليه بقوله :

تمني رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد
قُلِ لِلَّذِي يَبْغِي خِلاَفَ الذِي مَضَى ... تهيأ لأخرى مثلها فكأن قد
وقَدْ علِموا لَوْ يَنفَع العِلمُ عِندَهُمْ ... لئن مت ما الداعي علي بمُخلَد

فمات الشافعي، ومات بعده أشهب بثمانية عشر يوما رحم الله الجميع[279].

قال الإمام الذهبي : ودعاء أشهب على الشافعي من باب كلام المتعاصرين بعضهم في بعض، لا يعبأ به بل يترحم على هذا وعلى هذا ويستغفر لهما، وهو باب واسع، أوله موت عمر، وآخره رأيناه عيانا، وكان يقال لعمر: قفل الفتنة[280].

كتاب الرسالة :

ألف الإمام الشافعي رحمه الله كتابه : (الرسالة) استجابة لطلب عبد الرحمان بن مهدي (إمام أهل الحديث في عصره) حيث طلب منه وهو

(279) انظر ترتيب المدارك ج : 1 ص : 263.
(280) انظر سير أعلام النبلاء، جـ : 324/8.

شاب أن يضع له كتابا فيه معاني القرآن ويجمع قبول الأخبار وحجة الإجماع وبيان الناسخ والمنسوخ فوضع له كتاب الرسالة[281].

وقال ابن مهدي عن كتاب الرسالة : لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني، لأنني رأيت كلام رجل عاقل، فصيح ناصح، فإني لأكثر الدعاء له[282].

وهو أول كتاب وضع في علم الأصول، حتى قال فيه فخر الدين الرازي : اعلم أن نسبة الشافعي إلى علم الأصول، كنسبة أرسطو إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض[283].

وقال ابن خلدون : وأول من كتب فيه الشافعي رضي الله عنه أملى فيه رسالته المشهورة، تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس..[284].

وقال فيه صاحب مراقي السعود :

أول مـــن ألـفـه فـي الـكـتـب محمـد بـن شـافـع الـمـطـلـبي

ويرى الفخر الرازي : أن الشافعي رحمه الله صنف كتاب الرسالة ببغداد، لكن أحمد شاكر يرى أن كتاب الرسالة ألفه الشافعي مرتين، ولذلك يعده العلماء في فهرس مؤلفاته كتابين : الرسالة القديمة، والرسالة الجديدة.

والشَّافعي لَمْ يُسَمِّها بهذا الاسم، وإنما يسميها بالكتاب، ويظهر أنها سميت بهذا الاسم بسبب إرساله إياها لعبد الرحمان بن مهدي.

وقد اعتنى العلماء المتقدمون بشرحها[285].

---

(281) انظر سير أعلام النبلاء، جـ : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).

(282) تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 307.

(283) تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 306.

(284) مقدمة ابن خلدون ص : 504.

(285) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 307، والرسالة، للإمام الشافعي، بتحقيق وشرح أحمد محمد شاكر.

كتاب الأم :

ألف الإمام الشافعي رحمه الله كتاب «الأم» بعد أن استقربه المقام في مصر.

ويعتبر من أهم كتبه التي كتبها، وهو كتاب مرتب حسب الأبواب الفقهية، بدأ فيه بالكلام على الطهارة[286].

الأصول التي بنى عليها مذهبه :

بنى الإمام الشافعي رحمه الله مذهبه على أصول خمسة، وهي على الشكل التالي :

1- القرءان الكريم.
2- السنة المطهرة.
3- الإجماع.
4- قول الصحابي.
5- القياس.

محنة الإمام الشافعي :

كان الشافعي رحمه الله رجلا فقيرا لا دخل لـه إلا تلك الإعانة التي يأخذها من بيت مال المسلمين، باعتباره من آل بيت رسول الله ﷺ، وهذا ما دفع أحد وجهاء قريش إلى أن يطلب من والي اليمن أثناء زيارته لمكة المكرمة، توظيف الإمام الشافعي عنده، فلبى والي اليمن هذا الطلب، وأخذه معه إلى اليمن وعينه قاضيا علي (نجران) من أرض اليمن، فأقام العدل بين الناس وسوى بينهم في تطبيق شرع الله تعالى، فلم يبال بالكبراء والوجهاء، رغم إغرائهم لـه بالعطايا والهدايا، فكان نزيها لا يقبل شيئا منهم.

---

(286) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 305.

فصاروا يتربصون به الدوائر، وفي تلك الأثناء قدم إلى نجران وال جديد، فكان الإمام الشافعي يراقب تَصَرُّفاته، فإذا بدرت منه بادرة ظلم أو استغلال لنفوذه، وقف الإمام الشافعي في وجهه ومنعه، فكان رد فعل هذا الوالي أن وشى به إلى هارون الرشيد متهما إياه بأنه يوالي العلويين ويدعو إلى مساندتهم بلسانه، وكان العباسيون يحتاطون من العلويين مخافة أن يأخذوا منهم الخلافة، فأمر به هارون الرشيد.

فحمل على بغل في قيد إلى بغداد، ولما أدخل على هارون الرشيد استطاع رحمه الله بفصاحة لسانه، وعذوبة منطقه، وحلاوة لفظه، وقوة ذكائه، أن يطفئ غضبه ويغير رأيه فيه، وكان من جملة الحاضرين عند الرشيد الإمام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وكان قاضي بغداد في تلك الفترة، فلما رآه الشافعي اطمأنت نفسه لأنهما درسا معا على الإمام مالك، ولهذا قال الإمام الشافعي لهارون الرشيد في آخر كلامه : إن لي حظا من العلم، وإن القاضي محمد بن الحسن يعرف ذلك، فالتفت الرشيد إلى محمد بن الحسن، وسأله هل هو كذلك؟ فأجابه قائلا : له حظ كبير من العلم، وحاول أن يبعد عنه هذه التهمة، فما كان من الرشيد إلا أن قال : لمحمد بن الحسن، خذه عندك حتى أنظر في أمره، وبذلك انتهت محنة الإمام الشافعي.

وكان في طي هذه المحنة منحة للإمام للشافعي فقد كانت سببا في أخذه لفقه أبي حنيفة على يد تلميذه محمد بن الحسن الشيباني.

وفاة الإمام الشافعي :

توفي رحمه الله سنة أربع ومائتين من الهجرة النبوية بمصر، ودفن بالفسطاط، التي أصبحت اليوم تعرف بالقاهرة (عاصمة مصر) وله أربع وخمسون سنة.

حكى تلميذه المزني : أنه دخل على الإمام الشافعي في مرضه الذي مات فيه، فقال له : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا، ولإخواني

مفارقا، ولكأس المنية شاربا، ولسوء أعمالي ملاقيا، وعلى الله واردا، فلا أدري روحي تصير إلى الجنة فأهنئها، أو إلى النار فأعزيها ؟ ثم بكى

وأنشأ يقول :

ولما قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته ... بعفوك ربي كان عفوك أعظما
ومازلت ذاعفوعن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منة وتكرما

ولما مات رثاه خلق كثير

وهذه المرثية منسوبة إلى أبي بكر بن دريد (صاحب المقصورة) ومما جاء فيها قوله :

ألم تر آثار ابن إدريس بعده ... دلائلها في المشكلات لوامع
معالم يفنى الدهر وهي خوالد ... وتنخفض الأعلام وهي فوارع[287]

عن الربيع صاحب الشافعي قال : كنا جلوسا في حلقة الشافعي بعد موته بيسير فوقف علينا أعرابي ثم قال لنا : أين قمر هذه الحلقة وشمسها؟ قلنا : توفي رحمه الله، فبكى بكاء شديدا ثم قال : رحمه الله وغفر له، فلقد كان يفتح ببيانه منغلق الحجة، ويسد على خصمه واضح المحجة، ويغسل من العار وجوها مسودة، ويوسع بالرأي أبوابا منسدة، ثم انصرف[288].

وعنه قال : رأيت الشافعي بعد وفاته في المنام، فقلت : ما فعل الله بك؟ قال : أجلسني على كرسي من ذهب ونثر علي اللؤلؤ الرطب[289].

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

---

(287) انظر هذه المرثية في وفيات الأعيان، ج : 2 (ترجمة الإمام الشافعي).
(288) صفة الصفوة، لابن الجوزي ج : 2 ص : 172.
(289) صفة الصفوة، ج : 2 ص : 172.

الإمام أحمد إمام أهل السنة (164-241 هـ)

نسبه :

هو الإمام المبجل المجمع على إمامته وجلالته أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ثم المروزي ثم البغدادي، ينسب إلى جده حنبل.

وشيبان قبيلة من قبائل ربيعة.

يلقب بإمام أهل السنة، لما قام به من دفاع عظيم عن السنة المطهرة.

قال عنه الإمام الذهبي : هو الإمام حقا، وشيخ الإسلام صدقا[290].

وقال الإمام النووي : هو الإمام البارع، المجمع على جلالته، وإمامته، وورعه، وزهادته، وحفظه، ووفور علمه، وسيادته[291].

وهو خاتمة الأئمة الأربعة الذين انتشرت مذاهبهم واستمرت إلى الآن.

مولده ونشأته :

ولد الإمام أحمد رحمه الله بمدينة بغداد سنة أربع وستين ومائة من الهجرة النبوية، وفيها ـ بغداد ـ نشأ.

---

(290) سير أعلام النبلاء، ج : 9 ص : 434.

(291) تهذيب الأسماء واللغات، ج : 1 ص : 110 (ترجمة الإمام أحمد).

وكانت بغداد يومئذ حاضرة العالم الإسلامي، ومهدا للعلوم المختلفة الشرعية، واللغوية والعقلية، تموج بأنواع المعارف والفنون، وتزخر بالمشارب المختلفة، والأفكار المتباينة.

مات أبوه وهو ابن ثلاث سنوات فاعتنت به أمه.

حرصه على طلب العلم :

بدأ رحمه الله حياته العلمية بحفظ كتاب الله، وبعد أن حفظ القرآن تزود من علوم اللغة العربية، ثم أخذ في طلب الحديث وتدوينه ، وتتبع آثار الصحابة والتابعين ، فظهرت ألمعيته وتألقه، وعرف بين أقرانه بالتَّفَوُّق والاستقامة، وحسن الخُلُق.

وكان شديد الحرص على التعلم ، قال رحمه الله : ربما أردت البكور في طلب الحديث، فتأخذ أمي بثوبي وتقول : حتى يؤذن المؤذن.

وكنت ربما بكرت إلى مجلس أبي بكر بن عياش[292].

وظل يطلب العلم طيلة حياته حتى بعد أن صارفيه إماما، فتعجب بعض الناس من استمراره في طلب العلم على الرغم من إمامته وجلالته ، فقال: إلى متى وقد بلغت هذا المبلغ وصرت إمام المسلمين فأجاب بقوله : مع المحبرة إلى المقبرة.

شيوخه :

طاف الإمام أحمد رحمه الله في البلاد والآفاق، وأخذ عن شيوخ أخيار، وكانوا يجلونه ويحترمونه في حال أخذه عنهم.

وحج رحمه الله خمس مرات، حج راجلا في ثلاث منها.

---

(292) سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

من شيوخه : الإمام الشافعي، وقد لازمه إلى أن ارتحل إلى مصر.

ومن شيوخه : أبو يوسف صاحب أبي حنيفة، وسفيان بن عيينة، وعبد الرزاق بن همام، وهشيم بن بشير، ويحيى القطان، والوليد بن مسلم، وعبد الرحمان بن مهدي، وغيرهم[293].

تلاميذه :

أخذ العلم عن الإمام أحمد عدد كثير من التلاميذ.

من بين تلاميذه : ولده صالح، وهو أكبر أولاده، وولده عبد الله، وكانا عالمين. وممن روى عنه الإمام البخاري، ومسلم، وأبو داود، وعلي بن المديني، وأبو بكر الأثرم أحمد بن محمد بن هاني، وعبد الملك بن عبد الحميد، وأحمد بن محمد بن الحجاج (أبو بكر المروذي) أخص أصحاب أحمد، وهو الذي روى كتاب الورع عنه، وكان أحمد يثق في عقله وورعه، إلى غير ذلك من الذين تتلمذوا على يديه وصاروا أعلاما في المذهب الحنبلي.

ولما بلغ الإمام أحمد الأربعين من عمره، جلس للتحديث والإفتاء، في المسجد الجامع ببغداد، فاجتمع عليه الناس وازدحموا على مجلسه، حتى ذكر بعض الرواة أن عدد الذين كانوا يستمعون إلى درسه نحو خمسة آلاف.

انتشار مذهبه، وأتباعه :

قال ابن خلدون : فأما أحمد بن حنبل فمقلدوه قليل، لبعد مذهبه عن الاجتهاد، وأصالته في معاضدة الرواية، وللأخبار بعضها ببعض،

(293) انظر سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث[294].

وقال القاضي عياض :

وأما مذهب أحمد بن حنبل فظهر ببغداد، ثم انتشر بكثير من بلاد الشام وغيرها، وضعف الآن[295].

ثناء الأئمة عليه :

أثنى الأئمة على الإمام أحمد ثناء طيبا، قال عنه الإمام الشافعي : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفضل ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال لـه ذات يوم : يا أبا عبد الله إذا صح عندك الحديث، فأعلمني به أذهب إليه حجازيا كان أو شاميا أو عراقيا أو يمنيا.

قال ابن كثير معلقا على كلام الشافعي : يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز، الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين، وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب، وقول الشافعي له هذه المقالة، تعظيم لأحمد وإجلال له، وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه[296].

قال عنه أبو زرعة : إنه كان يحفظ ألف ألف حديث، فقيل له : وما يدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عنه الأبواب[297].

---

(294) مقدمة ابن خلدون، ص : 496.
(295) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 66.
(296) البداية والنهاية، ج : 7 (ترجمة الإمام أحمد).
(297) صفة الصفوة لابن الجوزي ج : 2 ص : 222.

وقال البخاري : لما ضرب أحمد بن حنبل كنا بالبصرة، فسمعت أبا الوليد الطيالسي يقول : لو كان أحمد في بني إسرائيل كان أحدوثة.

وقال عنه الإمام الذهبي : عالم العصر وزاهد الدهر، ومحدث الدنيا، وعلم السنة وباذل نفسه في المحنة، قل أن ترى العيون مثله، كان رأسا في العلم والعمل، والتمسك بالأثر، ذا عقل رزين وصدق متين وإخلاص مكين، انتهت إليه الإمامة في الفقه والحديث والإخلاص والورع، وهو أجل من أن يمدح بكَلِمِي أو أن أفوه بذكره بفَمِي.

وقال الإمام ابن القيم : وكان بها (بغداد) إمام أهل السنة على الإطلاق أحمد بن حنبل الذي ملأ الأرض علما وحديثا وسنة، حتى إن أئمة الحديث والسنة بعده هم أتباعه إلى يوم القيامة...[298]

وكان إماما في الحديث وضروبه، إماما في الفقه ودقائقه، إماما في السنة ودقائقها، إماما في الورع وغوامضه، إماما في الزهد وحقائقه[299].

وقال سعيد الخراز : لو كان الإمام أحمد في بني إسرائيل لكان آية. وقال إسماعيل بن الخليل : لو كان أحمد بن حنبل في بني إسرائيل لكان نبيا.

وقال يحيى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل، والله ما نقوى أن نكون مثله، ولا نطيق سلوك طريقه.

وقال ابن قتيبة : إن أحمد بن حنبل، قام في الأمة مقام النبوة.

وقال الهيثم بن جميل : وددت أنه نقص من عمري ، وزيد في عمر أحمد بن حنبل.

---

(298) اعلام الموقعين، ج : 1 ص : 23.

(299) شذرات الذهب، لابن العماد، ج : 3 ص : 185.

وقال أبو عمرو بن النحاس في حقه : في الدين ما كان أبصره، وعن الدنيا ما كان أصبره، وفي الزهد ما كان أخبره، وبالصالحين ما كان ألحقه، وبالماضين ما كان أشبهه، عرضت عليه الدنيا فأباها والبدع فنفاها.

وحب الإمام أحمد دليل على التمسك بالسنة، فقد قال بعض السلف : إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة، وإذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع ضال(300).

الأصول التي بنى عليها مذهبه :

مما يتميز به مذهب الإمام أحمد أنه يقوم على فقه السنة، وذلك لأن صاحبه من كبار المحدثين، وقد بنى مذهبه على أصول خمسة وهي كما يلي :

1- النصوص :

الأصل الأول من هذه الأصول : النصوص، فكان رحمه الله إذا وجد نصا من الكتاب أو من السنة أفتي بموجبه، ولا يلتفت إلى من خالفه كائنا من كان، و لم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملا ولا رأيا ولا قياسا.

2- فتاوى الصحابة :

الأصل الثاني : فتاوى الصحابة رضوان الله عليهم فكان إذا وجد فتوى لبعض الصحابة لا يعرف له مخالف منهم فيها ذهب إليها وترك غيرها، ويرى رحمه الله أن ما أفتى به الصحابي إذا لم يعلم له مخالف يكون حجة، ولذلك كانت أقوال الصحابة وفتاواهم حجة عنده تلي حجة أحاديث رسول الله ﷺ الصحيحة، وتقدم على المرسل من الأحاديث والضعيف من الأخبار.

---

(300) انظر الجرح والتعديل ، لابن أبي حاتم، ج : 1 (ترجمة الإمام أحمد).

3- الاختيار من فتاوى الصحابة إذا اختلفوا :

الأصل الثالث الاختيار من فتاوى الصحابة إذا اختلفوا، فكان يتخير من أقوالهم ما كان أقرب منها إلى الكتاب والسنة، و لم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها و لم يجزم بقول.

4- الأخذ بالحديث المرسل والضعيف :

وهو الأصل الرابع من هذه الأصول، فكان رحمه الله يعمل بالحديث المرسل ويقدمه على القياس، ولكنه كان يقدم عليه قول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف، ويقبل أيضا الحديث الضعيف ويعمل به، ولكنه لا يجعله في مرتبة الصحيح، بل يشترط أن لا يوجد في الباب غيره، وتكون مرتبته عنده بعد فتوى الصحابي،

ومما أثر عنه في ذلك قوله : الحديث الضعيف أحب إلي من الرأي.

5- القياس :

وهو الأصل الخامس من هذه الأصول، فكان رحمه الله يلجأ إلى القياس ويستعمله للضرورة إذا لم يجد في المسألة نصا ولا قولا للصحابة ولا قولا لواحد منهم ولا أثرا مرسلا أو ضعيفا.

وقد قال رحمه الله سألت الشافعي عن القياس فقال : إنما يصار إليه عند الضرورة، أو ما هذا معناه[301].

كتاب المسند :

وهو كتاب جليل النفع، عظيم القدر، غزير العلم، قام الإمام أحمد رحمه الله بجمعه وأورد فيه الأحاديث التي رواها بأسانيدها، وكان قد

(301) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 326.

بدأ في جمعها وتلقيها وهو ابن سبع عشرة سنة، طاف البلاد من أجلها، وتعب كثيرا في جمعها، وأنفق في ذلك معظم حياته.

وكان يقول لابنه عبد الله : احتفظ بهذا المسند فإنه سيكون للناس إماما[302].

قال عنه ابن خلكان : كان إمام المحدثين صنف كتابه المسند، وجمع فيه من الحديث ما لم يتفق لغيره.

ذكر الشوكاني عن الهيثمي في زوائد المسند أنه قال : إن مسند أحمد أصح صحيحا من غيره، لا يوازي مسند أحمد كتاب مسند في كثرته وحسن سياقاته، قال السيوطي في خطبة كتابه (الجامع الكبير) ما لفظه : وكل ما كان في مسند أحمد فهو مقبول، فإن الضعيف الذي فيه يقرب من الحسن[303].

وقد استمر الإمام أحمد في جمع مسنده هذا عن الثقات الذين رحل إليهم مدى حياته، وكان في أوراق متفرقة، فلما أحس بدنو أجله جمع بنيه وخاصته، وأملى عليهم ما كتب، مجموعات وإن لـم يكن مرتبا. والسند المتداول اليوم هو رواية عبد الله بن أحمد، الذي ورث عن والده حب الحديث وحسن العناية به، وقرر العلماء أنه كان أروى الناس عن أبيه، وروى عنه مسندَ أبيه الثقاتُ الأثبات من بعده حتى حفظته الأجيال.

وعبد الله هو الذي رتب المسند بالوضع الذي نراه الآن، فروى مسند كل صحابي على حدة[304].

وكان أحمد يتحرى الأخذ عن الثقات، ومع ذلك فإن بعض العلماء يرى أن المسند اشتمل على بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وقد

---

(302) سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

(303) نيل الأوطار، ج : 23/1.

(304) انظر تاريخ التشريع الإسلامي، ص : 319.

دافع عنه طائفة من العلماء وعلى رأسهم الحافظ ابن حجر في كتابه : «القول المسدد في الذب عن مسند أحمد».

وكتاب المسند مطبوع وموجود في المكاتب، وقد قام الشيخ أحمد شاكر بتخريج أحاديث المسند وضبط فهارسه، فجعل فيه فهارس للأعلام، وفهارس للصحابة مرتبة على حروف المعجم.

كما قام الشيخ أحمد البنا والد الداعية الشهيد حسن البنا بترتيب المسند وفق الأبواب الفقهية، فيسر مهمة البحث فيه، والتوصل إلى المطلوب منه، ونشر بعنوان :

«الفتح الرباني، على مسند الإمام أحمد الشيباني»[305].

وقد طبع أخيرا في خمسين مجلدا، بعناية مجموعة من العلماء.

عدد أحاديث المسند

اشتمل مسند الإمام أحمد على أربعين ألف حديث ، وقد استخرجها رحمه الله من سبعمائة ألف حديث كما قال ابنه عبد الله.

وللإمام أحمد أيضا كتاب «**الزهد**» وهو مطبوع في مئات الصفحات، ذكر فيه زهد الأنبياء، والصحابة والخلفاء الراشدين، وبعض الأئمة.

زهده :

الزهد والورع خلقان كريمان يتفاوت فيها أهل الإيمان والإسلام تفاوتا كبيرا، والإمام أحمد كان قد بلغ فيهما مبلغا كبيرا، حتى صار مضرب المثل في هاتين الصفتين.

---

(305) انظر تاريخ التشريع الإسلامي ص : 320.

جاء في الفكر السامي قال في المدارك : وأما زهده وورعه فأشهر من أن يذكر، وقد حاز هو والثوري في ذلك قصب السبق، ومزيد الشهرة، وإن كان لبقية الأئمة من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكبر، قال الشافعي: خرجت من بغداد وما خلفت فيها أفقه ولا أورع ولا أزهد ولا أعلم من ابن حنبل[306].

قال ابنه عبد الله : كنت أسمع أبي كثيرا يقول في دبر الصلاة : **اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك ، صنه عن المسألة لغيرك**[307].

وقال رحمه الله : عزيز علي أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورُهم القرآن[308].

من زهده رحمه الله ما قاله أبو داود : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة، لا يذكر فيها شيء من أمور الدنيا، وما رأيت أحمد ذكر الدنيا قط.

وعرض عليه أحد التجار عشرة آلاف درهم ربحها من بضاعة جعلها باسمه، فأبى أن يقبلها، ورد عليه قائلا : نحن في كفاية جزاك الله عن قصدك خيرا.

وعرض عليه شيخه عبد الرزاق باليمن دنانير وهو في أمس الحاجة إليها فردها عليه و لم يقبلها، زهدا منه في الدنيا ورغبة في الآخرة.

وكان لا يقبل هدايا السلاطين، رغم حاجته وفقره، ويصبر على شظف العيش وخشونته.

---

(306) الفكر السامي، للحجوي ج : 21/3.
(307) صفة الصفوة، لابن الجوزي ج : 2 ص : 288.
(308) صلاح الأمة، في علو الهمة، ج : 4 ص : 301.

قال ابنه صالح : ربما رأيت أبي رحمه الله يأخذ الكسر فينفض الغبار عنها، ثم يصيرها في قصعة ويصب عليها ماء حتى تبتل ثم يأكلها بالملح[309].

وقال المروزي : سمعت أحمد يقول : الخوف قد منعني أكل الطعام والشراب، فما أشتهيه[310].

قال ابن كثير رحمه الله : والأخبار عنه في هذا الباب كثيرة جدا، وقد صنف أحمد في الزهد كتابا حافلا عظيما لم يسبق إلى مثله، ولم يلحقه أحد فيه. والمظنون بل المقطوع به أنه إنما كان يأخذ بما أمكنه منه رحمه الله[311].

ورعه :

يكفي في ورعه ذكر هذه الآثار، قال قتيبة بن سعيد رحمه الله : لولا أحمد بن حنبل لمات الورع.

وورد أن الإمام الشافعي قال لهارون الرشيد : يا أمير المومنين، إن اليمن محتاج إلى قاض، فقال له الرشيد : اختر رجلا نوله إياها، فقال الشافعي لأحمد وكان يتردد إليه لأخذ العلم : ألا تقبل قضاء اليمن ؟ فامتنع من ذلك امتناعا شديدا وقال للشافعي :

إنما أختلف إليك لطلب العلم المزهد في الدنيا فتأمرني أن آتي القضاء ولولا العلم ما كلمتك بعد اليوم[312].

---

(309) سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد) وصفة الصفوة، ج : 226/2.
(310) طبقات الحنابلة، ج : 1 (ترجمة الإمام أحمد).
(311) البداية والنهاية، ج : 7 ص : 343 (ترجمة الإمام أحمد).
(312) انظر البداية والنهاية، ج : 7 ص : 342 (ترجمة الإمام أحمد).

جاء في «المنهج الأحمد في ترجمة الإمام أحمد» ولما كان أحمد باليمن رهن سَطْلا عند بقال بحضور سليمان بن داود الشاذَكُوني، وأخذ منه ما يتقوّت به، ثم جاءه بفَكاكه، فأخرج له سطلين، فقال : أيهما سطلك فخذه، فقال : قد اشتبه علي، أنت في حل من السطل وفكاكه، فقال الشاذكوني للبقال : أخرجت سطلين إلى رجل من أهل الورع، والسطول تتشابه، فقال : والله إنه لسطله بعينه، وإنما أردت امتحانه[313].

وقال صالح ابن الإمام أحمد : كان أبي لا يدع أحدا يستقي له الماء للوضوء، بل كان يلي ذلك بنفسه فإذا خرج الدلو ملآن قال : الحمد لله، فقلت يا أبت: ما الفائدة من ذلك فقال : يا بني أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿**قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن ياتيكم بماء معين**﴾[الملك الآية : 30].

وورد أيضا أنه جاع ثلاثة أيام لقلة ذات اليد، فاستقرض دقيقا من أحد إخوانه، ولما وصل إلى أهله عرفوا حاجته إليه، فأسرعوا في خبزه وطبخه، ووجدوا تنورا لولده صالح مسجورا فأنضجوا قرص الخبز فيه، فلما قدم إلى أحمد ليطعمه كأنه لاحظ سرعة طبخه، فسأل فأخبروه أنهم طبخوه في تنور ولده صالح، وكان صالح يتقاضى راتبا من الدولة فامتنع من أكله ورعا، لشبهة وظيفة ولده صالح.

وروى الإمام البيهقي : أن رجلا جاء إلى الإمام أحمد فقال : إن أمي زمنة مقعدة منذ عشرين سنة، وقد بعثتني إليك لتدعو الله لها، فكأنه غضب من ذلك، وقال : نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها، ثم دعا الله عز وجل لها، فرجع الرجل إلى أمه فدق الباب فخرجت إليه على رجليها وقالت : قد وهبني الله العافية[314].

---

(313) انظر صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، ص : 235.

(314) البداية والنهاية، ج : 7 ص : 358 (ترجمة الإمام أحمد). وصفة الصفوة، ج : 229/2.

وكان الإمام أحمد رحمه الله إذا نظر إلى نصراني غمض عينيه، فقيل له في ذلك، فقال : لا أقدر أنظر إلى من افترى على الله، وكذب عليه[315].

ما رئي له من منامات :

رئيت للإمام أحمد منامات عديدة تشير كلها إلى ما أثابه الله به من أجرعظيم، وثواب جسيم، بسبب موقفه من مسألة خلق القرآن.

منها : ما ورد عن يحيى الجلاء أنه رأى كأن أحمد بن حنبل في حلقة بالمسجد الجامع، وأحمد ابن أبي دؤاد في حلقة أخرى، وكأن رسول الله ﷺ واقف بين الحلقتين وهو يتلو هذه الآية : ﴿**فإن يكفر بها هؤلاء**﴾ ويشير إلى حلقة ابن أبي دؤاد ﴿**فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكفرين**﴾ [الأنعام الآية: 90]. ويشير إلى أحمد وأصحابه.

رئيت لـه منامات عديدة[316].

***

عن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : سمعت أبي يقول : رأيت رب العزة في المنام، فقلت : يا رب، ما أقرب ما يتقرب به إليك المتقربون ؟ فقال : بكلامي يا أحمد، فقلت : يا رب بفهم أو بغير فهم ؟ فقال : بفهم وبغير فهم[317].

محنة الإمام أحمد :

تعرض الإمام أحمد رحمه الله لمحنة قاسية ضرب فيها بالسياط ضربا شديدا، وسجن فيها ثمانية وعشرين شهرا.

---

(315) طبقات الحنابلة، ج : 1 (ترجمة الإمام أحمد).
(316) انظر البداية والنهاية، ج : 7 (ترجمة الإمام أحمد).
(317) سير أعلام النبلاء، ج : 9. (ترجمة الإمام أحمد)، ومختصر منهاج القاصدين، (كتاب آداب القرآن الكريم).

وكان السبب في هذه المحنة بدعة القول بخلق القرآن، التي دعت إليها فرقة المعتزلة بقيادة (الجعد بن درهم) الذي كان رئيس هذه البدعة وحامل لوائها وموقد نارها.

ولما أظهر هذا البدعة أيام هشام بن عبد الملك بن مروان صلبه بدمشق، ثم إنه هرب بعد ذلك، فكتب هشام إلى خالد بن عبد الله القسْري (نائبه بالعراق) يأمره بقتله، فقتله خالد في يوم عيد الأضحى.

وذلك بعد أن أدى صلاة العيد بالكوفة وقال في آخر خطبته : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضح بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا. ثم نزل فذبحه في أصل المنبر فشكر المسلمون سعيه، أثابه الله تعالى وتقبل منه[318].

ولكن هذه الفتنة لم تخمد نارها بقتل الجعد فقد ظلت جمرة تحت الرماد، وهي التي نمت في فكر المعتزلة حتى التقطها منهم الخليفة المأمون وتبناها، وكان علماء أهل السنة يعتبرون مذهب المعتزلة عند ما ظهر مذهبا خارجا عن الجماعة، فلما تولى الخلافة المأمون بن هارون الرشيد سنة 198هـ استولى عليه جماعة منهم فانتصر لمذهبهم ودعا إليه، ولكنه في آخر أيامه أراد أن يجعله مذهبا رسميا للدولة، وأن يحمل علماء عصره على القول بخلق القرآن، لكنه مات قبل أن يفلح في ذلك.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى : (ذِكْر ما جاء في محنة أبي عبد الله أحمد بن حنبل رضي الله عنه) في أيام المأمون، ثم المعتصم، ثم الواثق، بسبب القرآن العظيم، وما أصابه من الحبس الطويل، والضرب الشديد،

---

(318) انظر البداية والنهاية، لا بن كثير ج : 6 ترجمة (الجعد بن درهم) وترجمة (خالد القسري) ومدارج السالكين، لابن القيم ج : 3 (منزلة المحبة)، وفتح الباري، لابن حجر ج : 15 (كتاب التوحيد).

والتهديد بالقتل بسوء العذاب وأليم العقاب، وقلة مبالاته بما كان منهم في ذلك إليه وصبره عليه، وتمسكه بما كان عليه من الدين القويم والصراط المستقيم إلى أن قال :

وقد ذكرنا فيما تقدم أن المأمون كان قد استحوذ عليه جماعة من المعتزلة فأزاغوه عن طريق الحق إلى الباطل ، وزينوا له القول بخلق القرآن، ونفي الصفات عن الله عز وجل ، قال البيهقي :

و لم يكن في الخلفاء قبله من بني أمية وبني العباس خليفة إلا على مذهب السلف ومنهاجهم، فلما ولي هو الخلافة اجتمع به هؤلاء فحملوه على ذلك وزينوا له، واتفق خروجه إلى طرسوس لغزو بلاد الروم، فكتب إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب يأمره أن يدعو الناس إلى القول بخلق القرآن، واتفق له ذلك آخر عمره قبل موته بشهور من سنة ثماني عشرة ومائتين، فلما وصل الكتاب كما ذكرنا استدعى جماعة من أئمة الحديث فدعاهم إلى ذلك فامتنعوا فتهددهم بالضرب وقطع الأرزاق، فأجاب أكثرهم مكرهين :

واستمر على الامتناع من ذلك الإمام أحمد بن حنبل ومحمد بن نوح الجنديسابوري فحملا على بعير وسيرا إلى الخليفة عن أمره بذلك، وهما مقيدان متعادلان في محمل على بعير واحد، فلما كانا ببلاد الرحبة جاءهما رجل من الأعراب من عبادهم يقال له جابر بن عامر، فسلم عليه، وقال له : يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤما عليهم، وإنك رأس الناس اليوم، فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، وإن كنت تحب الله فاصبر على ما أنت فيه، فإنه ما بينك وبين الجنة إلا أن تقتل، وإنك إن لم تقتل تمت، وإن عشت عشت حميدا، قال الإمام أحمد :

وكان كلامه مما قوى عزمي على ما أنا فيه من الامتناع من ذلك الذي يدعونني إليه[319].

وقال أيضا : وقد كان فيه (المأمون) تشيع واعتزال وجهل بالسنة الصحيحة.

إلى أن قال : وكان على مذهب الاعتزال لأنه اجتمع بجماعة منهم بشر بن غياث المريسي، فخدعوه، وأخذ عنهم هذا المذهب الباطل، وكان يحب العلم و لم يكن له بصيرة نافذة فيه، فدخل عليه بسبب ذلك الداخل، وراج عنده الباطل، ودعا إليه وحمل الناس عليه قهرا، وذلك في آخر أيامه وانقضاء دولته[320].

وقال الإمام الذهبي : وفي آخر زمن الصحابة ظهرت القدرية، ثم ظهرت المعتزلة بالبصرة، والجهمية والمجسمة بخراسان في أثناء عصر التابعين مع ظهور السنة وأهلها إلى بعد المائتين، فظهر المأمون الخليفة وكان ذكيا متكلما له نظر في المعقول فاستجلب كتب الأوائل، وعرَّب حكمة اليونان وقام في ذلك وقعد، وخب ووضع، ورفعت الجهمية والمعتزلة رءوسها، بل والشيعة، فإنه كان كذلك، وآل به الحال إلى أن حمل الأمة على القول بخلق القرآن، وامتحن العلماء، فلم يُمهَل، وهلك لعامه، وخلى بعده شرا وبلاء في الدين.

فإن الأمة مازالت على أن القرآن العظيم كلام الله تعالى ووحيه وتنزيله، لا يعرفون غير ذلك، حتى نبغ لهم القول بأنه كلام الله مخلوق مجعول، وأنه إنما يضاف إلى الله إضافة تشريف، كبيت الله وناقة الله، فأنكر ذلك العلماء ، و لم تكن الجهمية يظهرون في دولة المهدي والرشيد والأمين فلما ولي المأمون كان منهم وأظهر المقالة[321].

---

(319) البداية والنهاية، لابن كثير، ج : 7 ص : 347 (ترجمة الإمام أحمد).
(320) البداية والنهاية، ج : 7 ص : 281 (ترجمة المأمون).
(321) سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

وكان من المحرضين للمأمون على هذه الفتنة أحمد بن أبي دؤاد : الذي كان يشغل منصب قاضي القضاة ببغداد، وهو الذي نصب نفسه خصما لكل من يخالف المعتزلة في مسألة خلق القرآن، وكان يتولى مناظرة العلماء بحضرة الخليفة.

كتب المأمون إلى نائبه ببغداد لأن المأمون كان قد خرج للجهاد في تلك السنة، فكانت رسالة المأمون من مدينة طَرَسُوس يأمر فيها نائبه ببغداد وهو إسحاق بن إبراهيم أن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن، ومن امتنع منهم يحمله إليه مقيدا في الأغلال، فجمع هذا النائب العلماء وأطلعهم على رسالة المأمون وأنذرهم بالعقاب الشديد الذي ينتظرهم إن امتنعوا من ذلك.

قال ابن عثيمين رحمه الله : وأكثر العلماء رأوا أنهم في فسحة من الأمر وصاروا يتأولون :

إما بأن الحال حال إكراه، والمكره إذا قال الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان فإنه معفو عنه، وإما بتنزيل اللفظ على غير ظاهره يتأولون فيقول مثلا : القرآن والتورية والإنجيل والزبور هذه مخلوقة، وهو يتأول أصابعه.

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح فأبيا ذلك وقالا : القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، ورأيا أن الإكراه في هذا المقام لا يسوّغ لهما أن يقولا خلاف الحق لأن المقام مقام جهاد، والإكراه يقتضي العفو إذا كانت المسألة شخصية، بمعنى : أن تكون على الشخص نفسه، أما إن كانت المسألة لحفظ شريعة الله، فالواجب أن يتبرع الإنسان برقبته لحفظ شريعة الله عز وجل، لو قال الإمام أحمد في ذلك الوقت :

إن القرآن مخلوق ولو بتأويل أو لدفع الإكراه، لقال الناس كلهم : القرآن مخلوق وحينئذ يتغير المجتمع الإسلامي من أجل دفع الإكراه، لكنه صمم فصارت العاقبة له، ولله الحمد[322].

وحين امتنعا من ذلك شد نائب المأمون وثاقهما وكبلهما بالحديد وباتا مصفدين في الأغلال إمعانا في تعذيبهما، وفي اليوم الثالث بعث بهما إلى المأمون الذي كان مقامه في طَرَسُوس، وفي أثناء الطريق مات الشيخ محمد بن نوح رحمه الله، وبقي الإمام أحمد يعاني في وثاقه، وهو في غاية من التماسك والثبات، وفي الطريق أيضا وصل إليهم خبر موت المأمون، فرجعوا بالإمام أحمد إلى بغداد فأودعه نائب المأمون في السجن حتى يظهر من يخلف المأمون فيرى رأيه فيه.

قال الحافظ ابن كثير : وجعل الإمام أحمد يدعو الله عز وجل أن لا يجمع بينهما وبين المأمون، وأن لا يرياه ولا يراهما إلى أن قال : فلما كانوا ببعض الطريق بلغهم موت المأمون فردوا إلى الرقة إلى أن قال :

ولكن لم يجتمعا به بل أهلكه الله قبل وصولهما إليه، واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الإمام احمد بن حنبل، فلم يريا المأمون ولا رآهما بل ردوا إلى بغداد[323].

لكن المأمون مات وترك وصيته لأخيه المعتصم الذي تولى الخلافة من بعده، يحثه فيها على حمل العلماء على اعتناق مذهب الاعتزال والقول بخلق القرآن، فعمل المعتصم بوصية أخيه وأذاق الإمام أحمد أشد العقاب، وكان يضرب بين يديه لامتناعه عن القول بخلق القرآن، فلبث في السجن سنتين وأربعة أشهر يضرب بالسياط حتى يغشى عليه، ولما ساءت حاله ويئسوا من قوله بخلق القرآن، أخرجوه من السجن وحملوه

(322) شرح العقيدة الواسطية، لمحمد الصالح العثيمين ج : 1 ص : 424.
(323) انظر البداية والنهاية، ج : 7 ص : 280 (أحداث سنة ثمان عشرة ومائتين).

إلى بيته مثخنا بالجروح، فبقي في بيته حتى التأمت جراحه واستعاد بعض قوته فخرج إلى المسجد على عادته لإلقاء دروسه.

ولما مات المعتصم تولى بعده ابنه الواثق وكان في تطبيق مذهب الاعتزال أسوأ من أبيه، فمنع الإمام أحمد من التدريس والإفتاء والاختلاط بالناس، فلزم الإمام بيته، حتى تنازل الواثق عن إلزام الناس بالقول بخلق القرآن.

وكانت هذه الفتنة من أعظم الفتن التي أصابت الأمة، ونشرت الفرقة، واستمرت هذه الفتنة إلى أن جرت مناظرة بين يدي الخليفة الواثق بين أحمد بن أبي دؤاد وأحد علماء أهل السنة الذين لا يقولون بخلق القرآن ، قال ابن أبي دؤاد للعالم السني :

ما تقول يا شيخ في القرآن أمخلوق هو ؟ قال الشيخ : هذا الذي تقوله علمه رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي أو ما علموه ؟ فقال ابن أبي دؤاد : لم يعلموه، قال : فأنت علمت ما لم يعلموا ؟ فخجل وسكت، ثم قال : أقلني بل علموه، قال : فلم لا دعوا الناس إليه كما دعوتهم أنت، أما وسعك ما وسعهم، فخجل وسكت.

فلما سمع الخليفة الواثق هذا الكلام المفحم وهذه الحجة الدامغة التي لم تتح أي فرصة لابن أبي دؤاد في الرد نهض من مجلسه، ودخل منزله واستلقى على ظهره، وجعل يكرر قول الشيخ على نفسه ويقول : أما وسعك ما وسعهم، ثم أطلق الشيخ وأعطاه أربعمائة دينار ورده إلى بلاده، وسقط من عينيه ابن أبي دؤاد و لم يمتحن بعده أحدا[324].

فكانت هذه المناظرة سببا في رجوع الواثق عن القول بخلق القرآن، وبها رفع الله جل في علاه هذه المحنة عن أهل السنة، وأزاح عنهم الغمة، وخيب سعي أحمد بن أبي دؤاد وحزبه.

(324) انظر البداية والنهاية، ج : 334/7 (ترجمة أحمد بن أبي دؤاد).

ورد أن الواثق تاب ورجع عن القول بخلق القرآن قبل موته[325].

وبعد موت الواثق تولى الخلافة من بعده أخوه المتوكل، فرد الاعتبار لأهل السنة، وحارب بدعة القول بخلق القرآن، قال عنه الإمام ابن كثير: وكان من خيار الخلفاء، لأنه أحسن الصنيع لأهل السنة، بخلاف أخيه الواثق وأبيه المعتصم وعمه المأمون، فإنهم أساءوا إلى أهل السنة، وقربوا أهل البدع والضلال من المعتزلة وغيرهم[326].

وقال أيضا : فلما ولي المتوكل على الله الخلافة استبشر الناس بولايته، فإنه كان محبا للسنة وأهلها، ورفع المحنة عن الناس، وكتب إلى الآفاق لا يتكلم أحد في القول بخلق القرآن ...[327].

قال عم الإمام أحمد (إسحاق بن حنبل) : دخلت على أبي عبد الله فقلت: يا أبا عبد الله قد أجاب أصحابك وقد أعذرت فيما بينك وبين الله، وبقيت أنت في الحبس والضيق، فقال أبو عبد الله :

يا عم، إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل، متى يتبين الحق ؟ قال : فأمسكت عنه، ثم قال : فذكر أبو عبد الله ما روي في التقية من الأحاديث، فقال : كيف تصنعون بحديث خباب ؟ لقد كان من قبلكم ينشر أحدهم بالمنشار ثم لا يصده ذلك عن دينه، قال : فيئسنا منه.

ثم قال : لست أبالي بالحبس، ما هو إلا ومنزلي واحد ، ولا قتلا بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط، وأخاف أن لا أصبر، فسمعه بعض أهل الحبس وهو يقول ذلك، فقال : لا عليك يا أبا عبد الله، ما هو إلا سوطان ثم لا تدري أين يقع الباقي، فلما سمع ذلك سري عنه[328].

---

(325) انظر البداية والنهاية، ج : 7 ص : 320 (أحداث سنة اثنتين وثلاثين ومائتين).
(326) البداية والنهاية، ج : 7 ص : 317 (أحداث سنة إحدى وثلاثين ومائتين).
(327) البداية والنهاية ج : 7 ص : 352 (ما كان من أمر الإمام أحمد بعد المحنة).
(328) انظر سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد)، والإسلام بين العلماء والحكام ص : 125.

ولما أدخل السجن طلب منه أن يقول كلاما لينجو به من سيف الحاكم فأبى ، وقال للقائل: انظر ما ترى فرأى الخلق على امتداد البصر كلهم ينتظرون ما ذا يقول أحمد فيقتدون بقوله، ثم قال : كيف أنجو بنفسي وأضل هؤلاء الخلق، والله ما يكون ذلك.

ذكر الإمام الذهبي عن المروذي (تلميذ الإمام أحمد) أنه قال : قلت للإمام أحمد : يا أستاذ قال الله تعالى :

﴿**ولا تقتلوا أنفسكم**﴾ [النساء : 29]. قال : يا مروذي اخرج وانظر فخرجت إلى رحبة دار الخلافة فرأيت خلقا لا يحصيهم إلا الله والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر، فقال لهم المروذي : ما ذا تعملون؟ قالوا ننظر ما يقول أحمد فنكتبه، فدخل فأخبره فقال يا مروذي أضل هؤلاء كلهم[329].

وعن ميمون بن الأصبغ قال : كنت ببغداد فسمعت ضجة، فقلت ما هذا؟ فقالوا أحمد بن حنبل يمتحن، فدخلت فلما ضرب سوطا قال : بسم الله، فلما ضرب الثاني قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فلما ضرب الثالث قال : القرآن كلام الله غير مخلوق، فلما ضرب الرابع قال : ﴿**قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا**﴾ [التوبة : 51]. فضرب تسعة وعشرين سوطا[330].

ومما ورد في هذه المناظرة التي جرت بين الإمام أحمد والمعتزلة، أن الخليفة المعتصم قال لأحد المعتزلة :

اسأله، فقال المعتزلي ما تقول في القرآن ؟ فلم يجبه أحمد، فقال له المعتصم أجبه، فقال أحمد : ما تقول في علم الله ؟ فلم يجب المعتزلي، فقال أحمد :

---

(329) انظر سير أعلام النبلاء، ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

(330) صفة الصفوة، لابن الجوزي ج : 2 ص : 229. وسير أعلام النبلاء ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

إن القرآن من علم الله، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر، فقالوا يا أمير المومنين كفرك وكفرنا، فقال المعتزلي : إن الله كان في الأزل و لم يكن معه قرآن.

فقال أحمد : لقد قلت إن القرآن من علم الله، فإذا قال قائل : كان الله ولا قرآن معه، فكأنه قال : كان الله ولا علم له، فقال المعتزلي : هو ضال مبتدع يا أمير المومنين.

وجرت بينهم مناظرات طويلة كانت فيها الغلبة للإمام أحمد.

وقصة ضربه وسجنه طويلة ومؤلمة جدا.

وقد ثبت رحمه الله وصبر و لم تأخذه في الله لومة لائم، وقف لله هذا الموقف العظيم الذي حفظه له التاريخ، وبذلك سجل اسمه ضمن أولئك الرجال الأبطال الذين يعيشون لعقيدتهم ودينهم وأمتهم، ويغضبون لربهم.

أولئك العظماء الذين جعلوا من أنفسهم حماة للقرآن وأنصارا للدين يجودون بأنفسهم حينما يعز الناصرون، ويتقاعس المتقاعسون، إنه الإيمان الراسخ الذي ما خالط قلب امرئ إلا وصنع منه أمثال هؤلاء العباقرة الأفذاذ.

انظر كيف استطاع هذا الإمام المبجل أن يضرب أروع الأمثلة في الصبر والثبات، وأن يصمد أمام هذه التحديات، ويلقن غيره أبلغ الدروس في الجهاد والتضحيات.

وقد قيل : **رجل ذو همّة يحيي الله به أمّة.**

وكما قال ابن دريد :

والناس ألف منهمُ كواحد وواحد كالألف إن أمر عَنا

قال علي بن المديني رحمه الله : حفظ الله الإسلام بأبي بكر يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة.

وقال بعضهم : لولا أحمد بن حنبل لصار الناس كلهم معتزلة.

وهو القائل رحمه الله : إذا أجاب العالم تقية والجاهل يجهل متى يتبين الحق.

ولم تزده هذه المحنة إلا إجلالا وإكبارا في أعين الناس ومحبة في قلوبهم.

وبعد أن أقام الإمام أحمد الحجة على خصمه (أحمد بن أبي دؤاد) أمام الواثق، قال الواثق :

اقطعوا قيد الشيخ فلما قطع ضرب بيده إلى القيد ليأخذه فجاذبه الحداد عليه فقال الواثق: لم أخذته ؟ قال لأني نويت أن أوصي أن يجعل في كفني حتى أخاصم به هذا الظالم غدا وبكى، فبكى الواثق وبكينا ـ الراوي ـ ثم سأله الواثق أن يجعله في حل فقال : لقد جعلتك في حل وسعة من أول يوم إكراما لرسول الله ﷺ لكونك من أهله[331].

كل هذه المحنة نزلت بالإمام أحمد، ومع ذلك عفا وصفح عن خصومه وجعلهم في حل إلا المبتدعة، وكان يتلو في ذلك قوله تعالى : ﴿**وليعفوا وليصفحوا**﴾ [النور الآية : 22].

ويقول : ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك[332].

سأله ابنه قائلا : يا أبت متى يرتاح المسلم ؟ قال : إذا وضع رجله اليمنى في الجنة.

---

(331) سير أعلام النبلاء، للذهبي ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد).

(332) سير أعلام النبلاء ج : 9 (ترجمة الإمام أحمد) والبداية والنهاية، ج : 7 ص : 350.

«عَدَدُ الذين ثَبتوا في المحنة»

قال الإمام ابن كثير : وكان الذين ثبتوا على المحنة فلم يجيبوا بالكلية خمسة : أحمد بن حنبل وهو رئيسهم، ومحمد بن نوح بن ميمون الجنديسابوري، ومات في الطريق حين ذهب هو وأحمد إلى المأمون، ونعيم بن حماد الخزاعي، وقد مات في السجن، وأبو يعقوب البويطي، وقد مات في سجن الواثق على القول بخلق القرآن، وكان مثقلا بالحديد وأوصى أن يدفن فيها، وأحمد بن نصر الخزاعي[333].

وهذا الأخير ذكر الإمام ابن كثير كيفية مقتله، وهي كيفية مؤثرة ومؤلمة جدا[334].

* * *

«عاقبة أحمد بن أبي دُؤاد»

وأما أحمد بن أبي دؤاد فقد اكتسب بفعله هذا كراهية شديدة بين الناس حتى صاروا يظهرون الشماتة به حين أصيب بالفالج.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله : وابتلاه الله بالفالج قبل موته بأربع سنين حتى بقي طريحا في فراشه لا يستطيع أن يحرك شيئا من جسده، وحرم لذة الطعام والشراب والنكاح وغير ذلك، وقد دخل عليه بعضهم فقال : والله ما جئتك عائدا، وإنما جئتك لأعزيك في نفسك، وأحمد الله الذي سجنك في جسدك الذي هو أشد عليك عقوبة من كل سجن، ثم خرج عنه داعيا عليه بأن يزيده الله ولا ينقصه مما هو فيه، فازداد مرضا إلى مرضه[335].

---

(333) البداية والنهاية، لابن كثير ج : 7 ص : 350.
(334) انظر البداية والنهاية، ج : 7 ص : 313.
(335) البداية والنهاية، ج : 7، ص : 335 أحداث (سنة أربعين ومائتين).

ويذكر ابن شراعة البصري شماتته بابن أبي دؤاد في أبيات

فيقول :

أفلتْ نجومك يا بن أبي دؤاد ... وبدت نحوسك في جميع أياد
فرحت بمصرعك البرية كلها ... من كان منها موقنا بمعاد
لم يبق منك سوى خيال لامع ... فوق الفراش ممهدا بوساد
وخبت لدى الخلفاء نار بعد ما ... قد كنت تقدحها بكل زناد
لم تخش من رب السماء عقوبة ... فسننت كل ضلالة وفساد
كم من كريمة معشر أرملتها ... ومحدث أوثقت بالأقياد
كم من مساجد قد منعت قضاتها ... من أن يعدل شاهد برشاد
لازال فالجك الذي بك دائما ... ومحقت قبل الموت بالأولاد.

وقد أنشد ثعلب عن أبي حجاج الأعرابي أنه قال في ابن أبي دؤاد :

نكست الدين يابن أبي دؤاد ... فأصبح من أطاعك في ارتداد
زعمت كلام ربك كان خلقا ... أما لك عند ربك من معاد
كلام الله أنزله بعلم ... على جبريل إلى خير العباد
ومن أمسى ببابك مستضيفا ... كمن حل الفلاة بغير زاد
لقد أطرفت يا بن أبي دؤاد ... بقولك إنني رجل إيادي

وفاة الإمام أحمد :

توفي رحمه الله صباح يوم الجمعة بمدينة بغداد، و لم يستقر في قبره إلا بعد صلاة العصر، وذلك لكثرة المشيعين، و دفن بها (بغداد) سنة إحدى وأربعين ومائتين من الهجرة النبوية، وله من العمر سبع وسبعون سنة.

وشيع جنازته جم غفير وخلق كثير، حزر من حضر جنازته من الرجال فكانوا ثلاثمائة ألف، ومن النساء ستين ألفا، وقيل إنه أسلم يوم مات عشرون ألفا من النصارى واليهود والمجوس[336].

وقد روى البيهقي وغير واحد أن الأمير محمد بن عبد الله بن طاهر أمر بحزر الناس فوجدوا ألف ألف وثلاثمائة ألف، وفي رواية وسبعمائة ألف سوى من كان في السفن[337].

قال ابن الجوزي : وحزر من حضرها من الرجال بثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألف امرأة[338].

ويعتبر هذا تصديقا لما رواه عنه ابنه عبد الله حيث قال : كان أبي يقول: قولوا لأهل البدع بيننا وبينكم الجنائز حين تمر[339].

قال الحافظ ابن كثير: وقد بلغه في مرضه عن طاووس أنه كان يكره أنين المريض، فترك الأنين فلم يئن حتى كانت الليلة التي توفي في صبيحتها أنَّ وكانت ليلة الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من هذه السنة، فأن حين اشتد به الوجع.

إلى أن قال : وأحسن ما كان من أمره أنه أشار إلى أهله أن يوضئوه، فجعلوا يوضئونه وهو يشير إليهم أن خللوا أصابعي، وهو يذكر الله عز وجل في جميع ذلك، فلما أكملوا وضوءه توفي رحمه الله ورضي عنه.

إلى أن قال : وحضر غسله نحو من مائة من بيت الخلافة من بني هاشم، فجعلوا يقبلون بين عينيه ويدعون له ويترحمون عليه رحمه الله،

---

(336) وفيات الأعيان، لابن خلكان، ج : 1 (ترجمة الإمام أحمد).
(337) البداية والنهاية، لابن كثيرج : 7 ص : 357.
(338) صفة الصفوة، ج : 2 ص : 233.
(339) البداية والنهاية، لابن كثير، ج : 7 ص : 258.

وخرج الناس بنعشه والخلائق حوله من الرجال والنساء ما لم يعلم عددهم إلا الله...[340].

وعن صالح ابن الإمام أحمد قال: قال لي أبي : جئني بالكتاب الذي فيه حديث ابن إدريس عن ليث عن طاووس أنه يكره الأنين، فقرأته عليه فلم يئن إلا في الليلة التي مات فيها[341].

وعن عبد الله بن أحمد قال : لما حضرت أبي الوفاة جلست عنده وبيدي الخرقة لأشد بها لحييه، فجعل يعرق ثم يفيق ثم يفتح عينيه، ويقول بيده هكذا : لا بعد لا بعد، فعل هذا مرة وثانية، فلما كان في الثالثة قلت له يا أبت أي شيء هذا قد لهجت به في هذا الوقت ؟ تعرق حتى نقول : قد قضيت، ثم تعود فتقول : لا بعد لا بعد، فقال يا بني ما تدري ما قلتُ؟ قلتُ : لا، فقال :

إبليس لعنه الله قائم حذائي عاض على أنامله يقول لي : يا أحمد فُتّني، فأقول : لا بعد لا بعد حتى أموت[342].

رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

وإلى تاريخ وفاة هؤلاء الأئمة وميلا دهم رمز بعضهم بقوله :

عليك إذا رمت العلوم بأربع ... تُوفُّوا على الترتيب في رمز مِقْول
فنعمانُهُم قانُ وطقع لمالك ... وللشافعي دُرٌّ ورمْ لابن حنبل
وميلادهم لِيمٌ ونجْم وصَيِّف ... وقصْد على الترتيب فضلهمُ جلي

(340) البداية والنهاية، ج : 7 ص : : 356 و57.
(341) صفة الصفوة، لابن الجوزي ج : 2 ص : 233.
(342) صفة الصفوة، لابن الجوزي ج : 233/2 والبداية والنهاية لابن كثير، ج : 7 ص : 356.

وأشار الإمام السيوطي رحمه الله إلى تاريخ وفياتهم مع بعض الأئمة فقال :

لمائة ونصفها النعمان ... وبعد إحدى عشرة سفيان
ومالك في التسع والسبعينا ... والشافعي الأربع معْ قرنَيْنا
وفي ثمان وثلاثين قضى ... إسحاق (بعد أربعين قد مضى
أحمد)..... .....[343]

(343) منظومة الألفية، في علم الحديث، (معرفة تاريخ الرواة).

نهي الأئمة الأربعة عن تقليدهم

أثر عن الأئمة الأربعة أقوال كثيرة، وعبارات مختلفة، يتبرءون فيها من الاقتداء بهم وتقليدهم فيما هو مخالف للسنة.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم، وذموا من أخذ أقوالهم بغير حجة، فقال الشافعي : مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه وهو لا يدري، ذكره البيهقي...[344]

وهذه بعض أقوالهم، قال أبو حنيفة رحمه الله :

إذا صح الحديث فهو مذهبي، وقال : لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا حتى يعلم من أين أخذناه.

وفي رواية : حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي، زاد في رواية : فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غدا.

وقال : إذا قلت قولا يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي.

وقال الإمام مالك رحمه الله : إنما أنا بشر أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

---

(344) اعلام الموقعين، ج : 2 ص : 139.

قال الإمام الشوكاني معلقا على قول الإمام مالك المتقدم : «إنما أنا بشر أخطئ وأصيب...».

ولا يخفى عليك أن هذا تصريح منه بالمنع من تقليده، لأن العمل بما وافق الكتاب والسنة من كلامه هو عمل بالكتاب والسنة، وليس بمنسوب إليه، وقد أمر أتباعه بترك ما كان من رأيه غير موافق للكتاب والسنة[345].

وقال الإمام مالك أيضا : قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فإنما ينبغي أن تتبع آثار رسول الله ﷺ ولا يتبع الرأي، فإنه متى اتبع الرأي جاء رجل آخر أقوى في الرأي منك فاتبعته، فأنت كلما جاء رجل غلبك اتبعته، أرى هذا لا يتم[346].

وكان رحمه الله على جلالة قدره وعلو منزلته، قلما يفتي بشيء إلا تلا هذه الآية :﴿**إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين**﴾ [الجاثية الآية : 31][347].

قال الإمام الذهبي : هذا الإمام الذي هو النجم الهادي قد أنصف، وقال قولا فصلا، حيث يقول :

كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر ﷺ[348].

وقال الإمام الشافعي : أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة عن رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس.

قال الحميدي : روى الشافعي يوما حديثا، فقلت : أتأخذ به ؟ فقال : رأيتني خرجت من كنيسة، أو علي زنار، حتى إذا سمعت عن رسول الله ﷺ لا أقول به[349].

---

(345) القول المفيد، في أدلة الاجتهاد والتقليد ص : 36.
(346) الاعتصام، للشاطبي ج : 181/1.
(347) انظر حلية الأولياء ج : 6، (ترجمة الإمام مالك).
(348) سير أعلام النبلاء ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).
(349) سير أعلام النبلاء، ج : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).

وقال أيضا إذا صح الحديث فهو مذهبي، وإذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ فاضربوا بقولي الحائط[350].

قال ابن القيم رحمه الله : وهذا وإن كان لسان الشافعي، فإنه لسان الجماعة كلهم...[351].

وقال الإمام أحمد : لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري، وخذ من حيث أخذوا.

وقال لبعض أصحابه : إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام[352].

إلى غير ذلك من أقوالهم الكثيرة، وتصريحاتهم العديدة[353].

وروى نوح الجامع عن أبي حنيفة أنه قال : ما جاء عن الرسول ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة اخترنا منه، وما كان من غير ذلك فهم رجال ونحن رجال[354].

وهذه الكلمة (فَهُم رِجَال ونحن رجال) ابتذلت في هذا الزمان من طرف المتعالمين والأحداث من طلبة العلم، وأصبحت مطية يركبها كل من يريد أن يرد أقوال الأئمة المتقدمين، والسلف الصادقين، ومن يريد أن يظهر نفسه على حساب أئمة العلم والدين، نعم هم رجال ونحن رجال من حيث الذكورية والصفات المشتركة، ولكن الله حباهم بفضله غزارة في العلم، وصدقا في الدعوة وصبرا على الأذى والبلاء، وبذلك أصبحوا رجالا بكل معاني الرجولة.

---

(350) سير أعلام النبلاء ، ج : 8 (ترجمة الإمام الشافعي).

(351) اعلام الموقعين ج : 3 ص : 223.

(352) اعلام الموقعين، ج : 4 ص : 170.

(353) انظر اعلام الموقعين، ج : 1 ص : 60، وج : 2 ص : 139، وج : 4 ص : 179 (ترتيب وضبط) : محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية.

(354) سير أعلام النبلاء، للذهبي، ج : 6 (ترجمة الإمام أبي حنيفة).

ومن أخطر الأمور تربية النشء على الاعتراض على الأئمة السابقين والعلماء الربانيين بغير حجة ولا برهان، وقد قال أحد العلماء لمن رد أمامه كلام السلف بحجة هم رجال ونحن رجال : إن مثلك ومثلهم كمثل رجل بال على شاطئ نهر ثم قال : هذا ماء وهذا ماء.

وأبو حنيفة إن قال ذلك فهو أهل له، فقد شهد له أقرانه بالفقه والفضل والإمامة في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وهؤلاء الأئمة الأربعة رضي الله عنهم قد نهوا الناس عن تقليدهم في كل ما يقولونه، وذلك هو الواجب عليهم. وساق رحمه الله كلام الأئمة في ذلك[355].

وتبرؤهم هذا دليل على فضلهم وإنصافهم، كما قال الإمام ابن القيم :

والثاني (الأمر) معرفة فضل أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ولرسوله لا يوجب قبول كل ما قالوه، وما وقع في فتاواهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول ﷺ فقالوا بمبلغ علمهم، والحق في خلافها لا يوجب اطراح أقوالهم جملة وتنقصهم والوقيعة فيهم.

فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصد السبيل بينهما ألا نؤثم ولا نعصم، ولا نسلك بهم مسلك الرافضة في علي ولا مسلكهم في الشيخين، بل نسلك مسلكهم أنفسهم فيمن قبلهم من الصحابة، فإنهم لا يؤثمونهم ولا يعصمونهم ولا يقبلون كل أقوالهم ولا يهدرونها، فكيف ينكر علينا في الأئمة الأربعة مسلكا يسلكونه هم في الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة ؟ ولا منافاة بين هذين الأمرين لمن شرح الله صدره للإسلام، وإنما يتنافيان عند أحد رجلين :

---

(355) انظر مجموع الفتاوى، ج : 211/20.

جاهل بمقدار الأئمة وفضلهم، أو جاهل بحقيقة الشريعة لتي بعث الله بها رسوله ﷺ ومن لـه علم بالشرع والواقع، يعلم قطعا أن الرجل الجليل الذي لـه في الإسلام قدم صالح وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور بل ومأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين[356].

وقال : فالواجب على من شرح الله صدره للإسلام، إذا بلغته مقالة ضعيفة عن بعض الأئمة أن لا يحكيها لمن يتقلدها، بل يسكت عن ذكرها إن تيقن صحتها، وإلا توقف في قبولها، فكثيرا ما يحكى عن الأئمة ما لا حقيقة لـه، وكثير من المسائل يخرجها بعض الأتباع على قاعدة متبوعه مع أن ذلك الإمام لورأى أنها تفضي إلى ذلك لما التزمها، وأيضا فلازم المذهب ليس بمذهب وإن كان لازم النص حقا، لأن الشارع لا يجوز عليه التناقض، فلازم قوله حق، وأما من عداه فلا يمنع عليه أن يقول الشيء ويخفى عليه لازمه، ولو علم أن هذا لازمه لما قاله، فلا يجوز أن يقال هذا مذهبه ويقوَّل ما لم يقله...[357].

وقال الإمام الشوكاني بعد ما نقل جملة من كلام الأئمة السابق : وإذا تقرر لك إجماع أئمة المذاهب الأربعة على تقديم النص على آرائهم عرفت أن العالم الذي عمل بالنص وترك قول أهل المذاهب هو الموافق لما قاله أئمة المذاهب، والمقلد الذي قدم أقوال أهل المذاهب على النص هو المخالف لله ولرسوله ولإمام مذهبه ولغيره من سائر علماء لإسلام.

ولعمري إن القلم جرى بهذه النقول على وجل من الله وحياء من رسول الله ﷺ فيالله العجب أيحتاج المسلم في تقديم قول الله أو رسوله

(356) اعلام الموقعين ج : 3 ص : 220.
(357) اعلام الموقعين ج : 3 ص : 222.

ﷺ على قول أحد من علماء أمته إلى أن يعتضد بهذه النقول، يا لله العجب أي مسلم يلتبس عليه مثل هذا حتى يحتاج إلى نقل هؤلاء العلماء رحمهم الله في أن أقوال الله ورسوله ﷺ مقدمة على أقوالهم، فإن الترجيح فرع التعارض، ومن ذاك الذي يعارض قوله قول الله أو قول رسوله ﷺ حتى نرجع إلى الترجيح والتقديم، سبحانك هذا بهتان عظيم، فلا حيا الله هؤلاء المقلدة الذين ألجئوا الأئمة الأربعة إلى التصريح بتقديم أقوال الله ورسوله على أقوالهم لما شاهدوه عليهم من الغلو المشابه لغلو اليهود والنصارى في أحبارهم ورهبانهم.

وهؤلاء هم الذين ألجئونا إلى نقل هذه الكلمات وإلا فالأمر واضح لا يلتبس على أحد، وليت هؤلاء المقلدة الأجلاف نظروا بعين العقل إذ حرموا النظر بعين العلم ووازنوا بين رسول الله ﷺ وبين أئمة مذاهبهم، وتصوروا وقوفهم بين يدي رسول الله ﷺ فهل يخطر ببال من بقيت فيه بقية من عقل هؤلاء المقلدين أن هؤلاء الأئمة يردون عليه قوله أو يخالفونه بأقوالهم؟

كلا والله بل هم أتقى لله وأخشى له فقد كان أكابر الصحابة يتركون سؤاله ﷺ في كثير من الحوادث هيبة وتعظيما، وكان يعجبهم الرجل العاقل من أهل البادية إذا وصل يسأل رسول الله ﷺ ليستفيدوا بسؤاله كما ثبت في الصحيح، وكانوا يقفون بين يديه كأن على رؤوسهم الطير، يرمون بأبصارهم إلى ما بين أيديهم ولا يرفعونها إلى رسول الله ﷺ احتشاما وتكريما، وكانوا أحقر وأقل عند أنفسهم من أن يعارضوا رسول الله ﷺ بآرائهم، وكان التابعون يتأدبون مع الصحابة بقريب من هذا الأدب، وكذلك تابعوا التابعين كانوا يتأدبون بقريب من آداب التابعين مع الصحابة، فما ظنك أيها المقلد لو حضر إمامك بين يدي رسول الله ﷺ.

فإذا فاتك يا مسكين الاهتداء بهدي العلم فلا يفوتنك الاهتداء بهدي العقل فإنك إذا استضأت بنوره خرجت من ظلمات جهلك إلى نور الحق[358].

هذه بعض أقوال الأئمة الأربعة وهي تظهر بجلاء شدة تمسكهم بسنة النبي ﷺ وعدم خروجهم عنها قيد أنملة، وأنه لا قول لهم مع قول النبي ﷺ ولذا وجب على من أراد تقليدهم والاقتداء بهم سلوك طريقتهم، وعدم التعصب لأقوالهم إذا خالفت السنة المطهرة، وذلك لأن من تمسك بما ثبت في السنة لا يكون مخالفا لمذهبهم، ولا خارجا عن طريقتهم، بل هو متبع وموافق لهم جميعا، لأن الأخذ بالسنة هو مذهبهم جميعا.

قال الإمام الذهبي رحمه الله : وقال شيخ : إن الإمام لمن التزم بتقليده، كالنبي مع أمته لا تحل مخالفته.

قلت (الذهبي) : قوله لا تحل مخالفته : مجرد دعوى واجتهاد بلا معرفة، بل له مخالفته إلى إمام آخر حجته في تلك المسألة أقوى، لا بل عليه اتباع الدليل فيما تبرهن له، لا كمن تمذهب لإمام، فإذا لاح له ما يوافق هواه عمل به من أي مذهب كان، ومن تتبع رخص المذاهب، وزلات المجتهدين، فقد رق دينه، كما قال الأوزاعي أو غيره :

من أخذ بقول المكيين في المتعة، والكوفيين في النبيذ، والمدنيين في الغناء، والشاميين في عصمة الخلفاء، فقد جمع الشر، وكذا من أخذ في البيوع الربوية بمن يتحيل عليها، وفي الطلاق ونكاح التحليل بمن توسع فيه، وشبه ذلك فقد تعرض للانحلال، فنسأل الله العافية والتوفيق[359].

---

(258) انظر القول المفيد، في أدلة الاجتهاد والتقليد، ص : 46.

(359) سير أعلام النبلاء، ج : 7 (ترجمة الإمام مالك).

وفي هذا المعنى قال سليمان التيمي : إن أخذت برخصة كل عالم اجتمع فيك الشر كله[360].

قال ابن القيم رحمه الله بعد ما ذكر جملة من كلام الإمام الشافعي، من مثل قوله : إذا رويت حديثا عن رسول الله ﷺ و لم أذهب إليه فاعلموا أن عقلي قد ذهب : وغير ذلك من كلامه في هذا المعنى صريح في مدلوله، وأن مذهبه ما دل عليه الحديث، لا قول له غيره، ولا يجوز أن ينسب إليه ما خالف الحديث ويقال : (هذا مذهب الشافعي) ولا يحل الإفتاء بما خالف الحديث على أنه مذهب الشافعي، ولا الحكم به، صرح بذلك جماعة من أئمة أتباعه حتى كان منهم من يقول للقارئ إذا قرأ عليه مسألة من كلامه قد صح الحديث بخلافها، اضرب على هذه المسألة فليست مذهبه، وهذا هو الصواب قطعا، ولو لم ينص عليه، فكيف إذا نص عليه وأبدى فيه وأعاد وصرح فيه بألفاظ كلها صريحة في مدلولها.

فنحن نشهد بالله أن مذهبه وقوله الذي لا قول له سواه ما وافق الحديث، دون ما خالفه وأن من نسب إليه خلافه فقد نسب إليه خلاف مذهبه، ولا سيما إذا ذكر هو ذلك الحديث وأخبر أنه إنما خالفه لضعف في سنده أو عدم بلوغه من وجه يثق به، ثم ظهر للحديث سند صحيح لا مطعن فيه، وصححه أئمة الحديث من وجوه و لم تبلغه، فهذا لا يشك عالم ولا يماري في أنه مذهبه قطعا.

وهذا كمسألة الجوائح فإنه علل حديث سفيان بن عيينة بأنه كان ربما ترك ذكر الجوائح، وقد صح الحديث من غير طريق سفيان صحة لا مرية فيها ولا علة ولا شبهة بوجه، فمذهب الشافعي وضع الجوائح، وبالله التوفيق[361].

---

(360) اعلام الموقعين، ج : 3 ص : 221.

(361) اعلام الموقعين ج : 4 ص : 179.

وقال ابن تيمية رحمه الله : وإذا نزلت بالمسلم نازلة فإنه يستفتي من اعتقد أنه يفتيه بشرع الله ورسوله من أي مذهب كان، ولا يجب على أحد من المسلمين تقليد شخص بعينه من العلماء في كل ما يقول،

ولا يجب على أحد من المسلمين التزام مذهب شخص معين غير الرسول ﷺ في كل ما يوجبه ويخبر به، بل كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ[362].

ولكن بعض الأتباع يتعصبون لأقوال أئمتهم حتى ولو أدى بهم ذلك إلى مخالفة النصوص الصريحة، فإذا جاءه الحق من إمامه الذي ينتمي إليه يقبله ويأخذ به، وينظر إليه بعين الرضا، ويلتمس العذر لإمامه إن خالف النص ويتنصل منه، ويرفضه بعينه إن جاءه ممن يخالفه، وقد يذمه ويعاديه ويشن عليه حربا كلامية، وينظر إليه بعين السخط.

كما قيل في هذا المعنى :

نظروا بعين عداوة لو أنها ... عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوا

وكما قيل أيضا :

تقول ذا جنى النحل تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير
مدحا وذما وما جاوزت وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير[363]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية وَهُوَ يتحدث عن التعصب للمذهب :

ومن تعصب لواحد بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين، كالرافضي الذي يتعصب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة، وكالخارجي الذي يقدح في عثمان

(362) مجموع الفتاوى، ج : 20 ص : 207.
(363) مفتاح دار السعادة، لابن القيم، ج : 1، واعلام الموقعين، ج : 4.

وعلي رضي الله عنهما، فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون، خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسوله ﷺ فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه ففيه شبه من هؤلاء، سواء تعصب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم[364].

وقد نظم صالح الفلاني أبياتا ضمنها أقوال الأئمة الأربعة

قال فيها :

قال أبو حنيفة الإمام ... لا ينبغي لمن له إسلام
أخذ بأقوالي حتى تعرضا ... على الكتاب والحديث المرتضى
ومالك إمام دار الهجره ... قال وقد أشار نحو الحجره
كل كلام منه ذو قبول ... ومنه مردود سوى الرسول
والشافعي قال إن رأيتم ... قولي مخالفا لما رويتم
من الحديث فاضربوا الجدارا ... بقوليَ المخالف الأخبارا
وأحمد قال لهم لا تكتبوا ... ما قلته بل أصلَ ذلك اطلبوا
فاسمع مقالات الهداة الأربعه ... واعمل بها فإن فيها منفعه
لقمعها لكل ذي تعصب ... والمنصفون يكتفون بالنبي[365]

قال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد ما ذكر جملة صالحة من كلام الأئمة السابق :

فرضي الله عن أئمة الإسلام، وجزاهم عن نصيحتهم خيرا، ولقد امتثل وصيتهم وسلك سبيلهم أهل العلم والدين من أتباعهم، وأما المتعصبون فإنهم عكسوا القضية ونظروا في السنة، فما وافق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحيلوا في رده أورد دلالته، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندا

(364) مجموع الفتاوى ج : 22 ص : 252.
(365) الصوارم والأسنة، للشنقيطي ص : 254.

ودلالة وكان يوافق قولهم قبلوه و لم يستجيزوا رده واعترضوا به على منازعيهم وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه، ودلالته كدلالة ذلك أوأقوى منه في خلاف قولهم دفعوه و لم يقبلوه[366].

وفي مثل هذا يقول منذر بن سعيد رحمه الله :

عذيري من قوم يقولون كلما ... طلبت دليلا هكذا قال مالك
فإن عدت قالوا هكذا قال أشهب ... وقد كان لاتخفى عليه المسالك
فإن زدت قالوا قال سحنون مثله ... ومن لم يقل ما قاله فهو آفك
فإن قلت قال الله ضجوا وأكثروا ... وقالوا جميعا أنت قرن مماحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم ... أتت مالكا في ترك ذاك المسالك[367]

وأختم هذا الفصل بأبيات للزمخشري يشير فيها إلى ما تلمز به المذاهب الأربعة

لئن سألوا عن مذهبي لم أبح به ... وأكتمه كتمانه لي أسلم
فإن حنفيا قلت قالوا بأنني ... أبيح الطِلا وهو النبيذ المحرم
وإن مالكيا قلت قالوا بأنني ... أبيح لهم أكل الكلاب وهمْ همُ
وإن شافعيا قلت قالوا بأنني ... أبيح نكاح البنت والبنت تحرم
وإن حنبليا قلت قالوا بأنني ... ثقيل حلولي بغيض مجسم
وإن قلت من أهل الحديث وحزبه ... يقولون تيس ليس يدري ويفهم
تحيرت من هذا الزمان وأهله ... ومن ذا الذي من أهله قط يسلم[368]

***

وأخرني دهري وقدم معشرا ... على أنهم لا يعلمون وأعلم
ومذ أفلح الجهال أيقنت أنني ... أنا الميم والأيام أفلح أعلم

(366) اعلام الموقعين، لابن القيم ج : 1 ص : 60.
(367) جامع بيان العلم وفضله، ج : 2 ص : 407.
(368) انظر الفكر السامي، للحجوي، ج : 3 ص : 25.

لا يعرف الفضل لأهله إلا أهله

كانت العلاقة التي تربط بين الأئمة الأربعة علاقة طيبة، علاقة ود واحترام، فكان كل واحد منهم يجل الآخر ويعظمه، وينزله المنزلة اللائقة به، ويرى أنه أهل لذلك، وظل هذا الاحترام متبادلا بينهم رغم ما حصل بينهم من اختلاف في بعض المسائل الشرعية، ومثل هذا الاختلاف لا يفسد للود قضية كما يقال،لأنه اختلاف محمود قد بني على دليل، والغرض منه الوصول إلى الحق وإلى مرضاة الله تعالى في ضوء كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وليس مذموما، الدافع له الهوى أو اكتساب الشهرة وحب الظهور، وهذا يؤدي إلى تفريق الأمة، وتمزيق شملها، بل هو اختلاف مجرد عن حظوظ النفس البشرية كلها.

ومع ذلك كانوا يحذرون من هذا الاختلاف، ويفرون منه ما وجدوا إلى ذلك سبيلا، ولذلك نفع الله بعلمهم واجتهادهم، وقد وقع الخلاف بين من سبقهم من الصحابة رضي الله عنهم في قضايا متعددة.

ثم إن هذا الاختلاف الذي وقع بين هؤلاء الأئمة ليس اختلاف تضاد وتناقض، وإنما هو اختلاف تنوع، اختلاف في الفهم والاستنباط، اختلاف معتبر مبني على التفاوت الحاصل بينهم في الفهم والإدراك، وبلوغ الحديث النبوي وعدم بلوغه، فمنهم من يبلغه الحديث ومنهم من لا يبلغه، ومن لم يبلغه الحديث فليس مكلفا أن يعمل بموجبه، ولا يتصور فيهم المخالفة المتعمدة للحديث النبوي فحاشاهم من ذلك، وحتى لو خالف الواحد منهم بعض الأحاديث، فإن له في ذلك أسبابا متعددة، منها :

أن كل واحد منهم لا يحيط بالسنة كلها، فقد يخفى عليه ما علمه غيره منها، وقد يفهم من الحديث ما لا يفهمه غيره.

ومنها : أن لا يكون الحديث قد بلغه، وحتى لو بلغه قد لا يثبت عنده، إلى غير ذلك من الأسباب.

وقد بسط الكلام عليها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، ودافع عن الأئمة وبين أسباب مخالفتهم للحديث النبوي، وذلك في رسالته التي سماها «**رفع الملام عن الأئمة الأعلام**».

ومما ورد فيها قوله : فيجب على المسلمين بعد موالاة الله تعالى ورسوله ﷺ، موالاة المؤمنين، كما نطق به القرآن، خصوصا العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر، وقد أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، إذ كل أمة قبل مبعث نبينا محمد ﷺ فعلماؤها شرارها، إلا المسلمين، فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول ﷺ في أمته، والمحيون لما مات من سنته، بهم قام الكتاب، وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا.

وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولا عاما، يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقا يقينيا على وجوب اتباع الرسول ﷺ وعلى أن كل واحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك، إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه، فلا بد له من عذر في تركه[369].

ومع هذا كله كانوا يراعون أدب الاختلاف فيما بينهم، هذا الأدب الرفيع الذي يعتبر من أخلاق علمائنا الأجلاء.

(369) رفع الملام عن الأئمة الأعلام، ص : 5.

فهذا الإمام مالك خالف أبا حنيفة في مسائل كثيرة، ومع ذلك كان يجله ويحترمه، قيل له : هل رأيت أبا حنيفة ؟ قال : نعم رأيت رجلا لو كلمك في هذه السارية أن يجعلها ذهبا لقام بحجته.

وقال الليث : لقيت مالكا بالمدينة، فقلت له : إني أراك تمسح العرق عن جبينك، قال عرقت مع أبي حنيفة، إنه لفقيه يا مصري، ثم لقيت أبا حنيفة فقلت : ما أحسن قول ذلك الرجل فيك ، فقال : والله ما رأيت أسرع منه بجواب صادق وزهد تام[370].

هذا رأي مالك في أبي حنيفة وذلك رأي أبي حنيفة في مالك، كلاهما يعرف مكان صاحبه من الفقه والنظر، وينصفه ويضعه في مكانه اللائق به.

وقال فيه الشافعي رحمه الله :

لقد زان البلاد ومن عليها ... إمام المسلمين أبو حنيفه
بأحكام وآثار وفقه ... كآيات الزبور على الصحيفه
فما بالمشرقين له نظير ... ولا بالمغربين ولا بكوفه
فرحمة ربنا أبدا عليه ... مدى الأيام ما قرئت صحيفه
رأيت العايبين له سفاها ... خلاف الحق مع حجج ضعيفه

حكى ولي الله الدهلوي : أن الشافعي رحمه الله صلى الصبح قريبا من مقبرة أبي حنيفة رحمه الله فلم يقنت تأدبا معه، وقال : ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق[371].

وهذا الإمام الشافعي تتلمذ على الإمام مالك وخالفه في مسائل، ومع ذلك كان يجله ويحترمه ويقول : مالك أستاذي ومعلمي وعنه أخذت العلم، ولا يعبر عنه إلا بالأستاذ.

---

(370) ترتيب المدارك، ج : 1 ص : 62.
(371) حجة الله البالغة، ج : 1 ص : 296.

ويقول : كنت أُصفح الورقة بين يدي مالك صفحا رقيقا هيبة لئلا يسمع وقعها.

وقال عنه الإمام أحمد : إذا رأيت الرجل يبغض مالكا فاعلم أنه مبتدع.

وكذلك الإمام أحمد تتلمذ على الشافعي وخالفه في مسائل، و لم يمنعه هذا من تبجيله والوفاء له بحقه، حيث كان يدعو له في كل ليلة ويقول رحمه الله : والله ما بت ليلة منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو فيها للشافعي، وفي رواية منذ أربعين سنة، فقال له ابنه : يا أبت سمعتك تكثر الدعاء للشافعي، فمَن هذا الشافعي، فقال : كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فانظر فهل لهذين من خلف أو منهما عوض ؟.

وورد أن الإمام الشافعي زار الإمام أحمد، فلما رآه وثب وسلم عليه، وحين أراد أن يركب قرب إليه أحمد البغلة، وجعل يسير بجانب البغلة، فبلغ أمره إلى يحيى بن معين فأنكر عليه وقال : يا أبا عبد الله أما رضيت إلا أن تمشي بجانب بغلة الشافعي ؟ فقال : يا أبا زكريا لو مشيت من الجانب الآخر كان أنفع لك، وفي رواية: إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة[372].

وحينما سمع شيخه الشافعي يقول :

أحب الصالحين ولست منهم ... لعلي أن أنال بهم شفاعه
وأكره من تجارته المعاصي ... وإن كنا سويا في البضاعه

أجابه بقوله :

تحب الصالحين وأنت منهم ... ومنكم سوف يلقون الشفاعه
وتكره من تجارته المعاصي ... وقاك الله من شر البضاعه

(372) مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير، ص : 108، ووفيات الأعيان، جـ : 1. وحلية الأولياء، جـ : 9، وسير أعلام النبلاء، جـ : 8.

ولما قيل للشافعي : إن أحمد يكثر من زيارتك قال :

قالوا يزورك أحمدٌ وتزوره ... قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زارني فبفضله أو زرته ... فلفضله فالفضل في الحالين له

فأجابه الإمام أحمد بقوله :

إن زرتنا فبفضل منك تمنحنا ... أو نحن زرنا فللفضل الذي فيكا
فلا عدمنا كلا الحالين منك ولا ... نال الذي يتمنى فيك شانيكا

قال عنه الإمام الشافعي : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أحَداً أفضل ولا أورع ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال له ذات يوم : يا أبا عبد الله إذا صح عندك الحديث، فأعلمني به أذهب إليه حجازيا كان أو شاميا أو عراقيا أو يمنيا.

قال الإمام ابن كثير معلقا على كلام الشافعي : يعني لا يقول بقول فقهاء الحجاز، الذين لا يقبلون إلا رواية الحجازيين، وينزلون أحاديث من سواهم منزلة أحاديث أهل الكتاب، وقول الشافعي له هذه المقالة ، تعظيم لأحمد وإجلال له ، وأنه عنده بهذه المثابة إذا صحح أو ضعف يرجع إليه[373].

زار الإمام الشافعي الإمام أحمد في داره، وبعد أن تناولا طعام العشاء معا، ذهب الإمام الشافعي لينام، وفي الصباح قالت بنت الإمام أحمد لأبيها : يا أبتاه أهذا هو الشافعي الذي كنت تحدثني عنه ؟ قال أبو عبد الله: نعم يا بنيتي، قالت ابنة الإمام أحمد : لقد لا حظت عليه ثلاثة أمور، فقال : ما هي ؟ قالت : إنه عندما قدمنا إليه الطعام أكل كثيرا، ونام و لم يقم ليصلي قيام الليل.

وصلى بنا الفجر من غير أن يتوضأ.

(373) البداية والنهاية، جـ : 7 (ترجمة الإمام أحمد).

وواجه الإمام أحمد الإمام الشافعي بقول ابنته، فتبسم وقال : يا أبا عبد الله: لقد أكلت كثيرا لأنني أعلم أن طعامك من حلال، وأنك كريم، وطعام الكريم ـ المؤمن ـ دواء، وطعام البخيل داء، وما أكلت لأشبع، وإنما أكلت لأتداوى بطعامك، وأما أنني لم أقم الليل، فلأنني عندما وضعت رأسي لأنام نظرت كأن أمامي الكتاب والسنة، ففتح الله علي باثنين وسبعين مسألة من علوم الفقه الإسلامي أردت أن أنفع بها المسلمين.

وأما أنني صليت بكم الفجر بغير وضوء، فوالله ما نامت عيني حتى أجدد الوضوء لقد بقيت طول الليل يقظانا، فصليت بكم الفجر بوضوء العشاء[374].

هكذا كان الأئمة الأربعة متوادين فيما بينهم متراحمين، وإذا التقوا أتوا بكل فضيلة واستفاد بعضهم من بعض

كما قيل :

ولله قوم كلما جئت زائرا ... وجدت قلوبا منهمُ ملئت حلما
إذا اجتمعوا جاءوا بكل فضيلة ... ويزداد بعض القوم من بعضهم

هذه صور مشرقة من حياة هؤلاء الأمجاد، وهي تبرز بجلاء ووضوح ذلك الترابط المتين والاحترام الكبير الذي كان يجمع بين أصحاب هذه القلوب الطيبة التي كانت تتطلع إلى معالي الأمور، وتسمو عن السقوط في سفاسفها.

«وجُوبُ الاعْتِنَاء بِسِيَرِ أئمة الإسلام»

فالمطلوب من الأمة اليوم الاعتناء بسير أئمتها وعلمائها، ونشرها وعدم إهمالها، ينبغي أن تكون حاضرة معها غير غائبة عنها، وأن تشغل بها

(374) انظر الأئمة الأربعة، لعبد العزيز الشناوي، ص : 23.

حيزا هاما من مجالسها وبرامجها التعليمية، ومناهجها التربوية، وعلى المربين والمربيات والمرشدين والمرشدات الاهتمام بها وإعطاؤها ما تستحق من عناية، حتى تتمكن الأجيال الصاعدة من الاطلاع عليها، فتصير مثالا يقتدى، ونبراسا يحتذى، فالعلماء هم قادة الأمة وأعلامها، وهم هداتها وحداتها، فإذا ما غابوا أو غيبوا تصدى الجهال لمهمتهم ووظيفتهم، فضلوا وأضلوا، وعندها تصاب الأمة بالأزمات، وتتوالى عليها الانتكاسات.

وأخيرا أقول : إن مناقب هؤلاء الأئمة جمة، وفضائلهم عدة، وما ذكر هنا فإنما هو قليل من كثير، وغيض من فيض، وقطرة من بحر، فمناقبهم أكثر من أن تحصر هنا، وليسوا رحمهم الله تعالى ممن يترجم لهم في مثل هذه الأوراق.

ومن أراد المزيد فعليه بالرجوع إلى ما كتب عنهم في المطولات، وما دون في الأمهات.

رحم الله هؤلاء الأئمة الأعلام، وسائر علماء الإسلام، وجزاهم عن الإسلام والمسلمين خيرا، وجعلنا بهم مقتدين، وعلى نهجهم سائرين، وبعلومهم منتفعين، ولهم محبين، وجمعنا بهم في دار النعيم، وحفظنا فيمن بقي من أئمتنا، وعلمائنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه، فهو أكرم مسئول وخير مأمول.

خاتمـــة

ولا يسعني في نهاية هذا البحث إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل، لأساتذتي وشيوخي الأجلآء، وأخص منهم بالذكر شيخنا الفاضل، فضيلة العلامة سيدي أبا عطاء الله عبد الله بن المدني، الذي نكن له كامل التقدير والاحترام، ونكن له المحبة الصادقة، والمودة الخالصة، والذي لا يألو جهدا في نشر المعرفة، وبذل العلم لطلبته خاصة، ولمجتمعه عامة، وإن وجوده بين ظهرانينا لمنة من منن الله علينا نحن طلبة العلم خاصة، وأهل المنطقة عامة، تستوجب منا أن نشكر الله عليها، ونلهج بالثناء عليه في كل وقت وحين.

فنحمد الله الذي هيأ لنا الأسباب، حتى تشرفنا بالجلوس بين يديه، واستفدنا من علمه، إنه ما فتئ حفظه الله، يبذل جهودا متواصلة، وعملا دؤوبا في بث العلم الشرعي، وتبليغه للناس في تواضع جم، وصبر وحلم، وهدوء وسعة صدر، وتفان كبير.

ويصدق فيه وفي وجوده في هذا البلد، قول ميمون بن مهران : **إن مثل العالم في البلد، كمثل عين عذبة في البلد**[375].

وإن اللسان ليعجز عن شكره، والعبارة تقصر عن مدحه، فالله أسأل أن يتولى جزاءه، وأن يمد في عمره، ويبارك في علمه وعمله، ويحفظه في حله وترحاله، وأن يمتعنا بمجالسته أياما مديدة، وأعواما عديدة، وأن يجمعنا به في مستقر رحمته، مع أصفيائه وأوليائه، إنه جواد كريم.

---

(375) جامع بيان العلم وفضله، ج : 1 ص : 65.

قال عنه تلميذه الوفي السيد «محمد الحسين نَحُّو» في مذكرته المخطوطة: «من فضل الله علينا ومن منه ونعمه التي تستوجب شكره عز وجل، أن من علينا نحن طلبة العلم بدار القرآن بشيخ جليل، قل أن تبصر العين مثيلا له في سعة العلم، ورحابة الصدر، ورجاحة العقل، إلا فيما يقع عليه نظر الناظر المتصفح في تراجم كبار علماء الأمة الإسلامية وعظمائها.

وعى صدره علوما شتى لا يشق له فيها غبار، وزان تلك العلوم الشريفة بصفات حميدة أسَرَت وتأسِر كل من التقى به وخالطه وجالسه، تربى في مهد العلم، وبيت الشرف، فأبوه الشيخ المدني رحمه الله كان من خريجي جامع القرويين، وأحد أساطين المذهب المالكي في وقته، وقد ظهر أثر ذلك على ولده إذ ضبط المذهب المالكي بأصوله وفروعه، من غير تعصب ولا تقليد أعمى، بل هو دائر مع الدليل والترجيح حيثما دار.

خلع شيخنا من صدره الشغف بمناظر النعيم، ولم يمل إلى مضاجع الراحة وهي طوع يمينه، واستبدلها بالتوجه إلى معالي الأمور وسبيل المجد، الذي لا يخلص سالكه من متاعب، ولا ينجو من ركوب الأخطار، إذ الغُرر لا تنال إلا بركوب الغَرَر، متمثلا قول أبي الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

إنه شيخنا عبد الله بن المدني أعلى الله درجته في الدنيا والآخرة.

هذا الشيخ الذي سعى وكافح وواصل ليله بنهاره حتى جعل من دار القرآن ـ حرسها الله ـ قبلة لطلاب العلم يؤمونها ويشدون إليها الرحال، ويحطون عندها الآمال، من أرجاء المملكة الشريفة، من أجل أن يغترفوا وينهلوا من بحر العلم الزاخر.

لدروسه عبق خاص، وطعم لذيذ يبعث في النفوس الشوق ويشحذ الهمم، ويتعلم منها الطالب الألمعي كيف يغوص في لجج بحر المعاني،

وتريه نموذجا من الدرر والجواهر، إنه مدرس جذاب، يستطيع أن يوصل المعلومة إلى طلابه بطريقة الإشارة والحركة وضرب الأمثلة وغير ذلك.

أسلوبه يتميز بأنه سهل ممتنع ، وبيان ذلك أن أسلوب الشيخ واضح سلس، يختار لحديثه أدق الألفاظ وأجملها وأوفاها بالغرض، من غير تعقيد ولا تنافر، يفهمه العامي والمتعلم، ويصل إلى قلوب السامعين بسهولة وانسياب كالماء العذب الزلال، ومع ذلك فهو ممتنع، لأنه لا يقدر على صوغه وإجادته والتصرف فيه إلا من كان عالما متمكنا من لغة القرآن الكريم كالشيخ، فلا عجب إذن أن ترى طلابه صباح مساء يحنون ويعشقون سماع ما يصدر عنه من اللطائف والدقائق العلمية، التي تبعث في الأرواح انتعاشا، وفي الصدور انشراحا، وقد صدق أحد إخواننا وأعزائنا الطلبة، وهو الأخ المجد عبد الرزاق الصادقي حينما أنشد في حق الشيخ :

وذا عـلَـمٌ وذا قـمـرٌ مضـيء ... وذا مـاءٌ تسير بـه السـهـول
ألا أكْـرِم إذاً بـأبـي عـطـاءٍ ... إذا حلت بساحتك الفحول

لم يرد الشيخ الجليل من دعوته ونشره للعلم جزاء ولا شكورا من أحد إلا من الله الصمد، وما أراد حفظه الله ورعاه من دعوته وتعليمه أبناء المسلمين إلا أن تنهض أمته من كبوتها، وتتعلم أمور دينها، وتتوحد من فرقتها وتعتصم بحبل الله جميعا، وتلوذ بشرعه وحماه.

هذه حروف سطرتها بمداد من الفخر، ممزوجة بحياء وخجل، وهي لا تفي بذرة من بعض حق الشيخ علي، فله مني ومن طلابه ومحبيه أسمى التحية والتقدير والاحترام ، ولا أزعم لنفسي أنني تكلمت ووصفت الشيخ بالذي سطرت عنه هنا، إذ كيف لي أن أتكلم وأصف سيرة رجل

عالم أعطى فأوفى، وعرفه الأدنون والأقصون، وتلقى عنه العلم جيل بل أجيال من الطلبة يعدون بالمئات، فرأوا فيه الصدق والنقاء والإخلاص، وإنما هذه شبه محاولة لإظهار بعض ما يكنه قلب كاتب هذه السطور من محبة عظيمة لشيخه الجليل، وذلك أقل ما أقوم به، لرد جزء من جميل كرم الشيخ، وإنني ما زلت أتطلع إلى اليوم الذي أُسر فيه كما سيسر طلبة الشيخ برؤية مؤلف يجمع سيرة شيخنا ويدنيها للمحبين»[376].

ولا يفوتني هنا أن أشيد بالمجهودات الكبيرة، التي يبذلها القيمون على هذه المدرسة العتيقة، هؤلاء الأخيار الذين اختارهم الله لخدمة دار القرآن الكريم، والذين أخذوا على أنفسهم خدمة هذا الكتاب المبين، وسنة النبي الأمين، فعمدوا إلى تشييد هذه المعلمة المباركة، وقد بذلوا فيها أموالهم وأوقاتهم وأفكارهم، ولا زالوا يبذلون ويضحون حتى تُحقق هذه المدرسة أهدافها المتوخاة منها، ألا وهي تعليم الطلبة وتكوين الدعاة إلى الله.

وإن تكوين الدعاة إلى الله ليس بالأمر الهين، ولا بالمهمة السهلة، بل هو مهمة صعبة، ومسئولية جسيمة، وعبء ثقيل، لأنها مهمة بناء الرجال، وتربية الأجيال، وبناء الرجال أعظم وأشد من بناء الجدران.

يبني الرجالَ وغيرُه يبني القرى شتّان بين قرىً وبين رجال[377]

وحسبهم فخرا أنهم نالوا بذلك شرف خدمة كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ.

---

(376) المذكرة، «الجزء الأول».

(377) انظر لسان العرب، لابن منظور، ج : 14 (مادة بنى).

فهم الذين بنوا وآووا وهيئوا الأجواء المناسبة، وعملوا على تفريغ الطلبة لأخذ العلم وتلقيه.

وليس هذا مجاملة، وإنما هو شهادة صدق، وإخبار بالواقع، واعتراف بالجميل، ومن باب قوله ﷺ : «**مَن لا يشكرُ الناسَ لا يشكرُ اللهَ**»[378].

فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين أعظم الجزاء، ووفقهم لمزيد من البذل والعطاء، وأدام عليهم نعمة الأمن والرخاء، وجعل هذه الدار صدقة جارية لهم ما تعاقب الظلام والضياء، وجزاهم بالإحسان إحسانا، وبالإساءة عفوا وغفرانا، ورزقهم سعادة الدارين آمين.

وبمجرد تأسيس هذه المدرسة المباركة ذاع صيتها وانتشر خبرها، وتناقلته الركبان، فأصبحت مصدر إشعاع، وقبلة يقصدها طلبة العلم الشرعي، ويفدون إليها من كل أنحاء المملكة المغربية، وقد مر على تأسيسها ما يقارب عقدين من الزمن، وخلال هذه الحقبة من مسيرتها استطاعت – بفضل الله ثُمَّ بفضل القائمين عليها – أن تحيي في المنطقة الاعتناء بكتاب الله حفظا وتجويدا وفهما، وكانت لها ثمار طيبة، ونتائج سارّة، أدّت رسالتها وآتت أكلها، فلله الحمد وله المنة.

وقد تخرج منها خلال هذه المدة عدة أفواج، ويتسم الطلبة المتخرجون منها بالسمت الحسن والانضباط، والوسطية والاعتدال، والتحلي بالأخلاق الحميدة، والبعد عن التنطع والتعمق، مما جعل الناس يثنون على القائمين عليها، ويرغبون في التعرف على طلبتها الذين عرفوا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

---

(378) حديث صحيح، أخرجه الإمام الترمذي في السنن (كتاب البر والصلة، رقم الحديث : 1961).

والله أسأل أن يحفظها ويحرسها بعينه التي لا تنام، وأن يبارك في أساتذتها وطلبتها ويجعلهم علماء عاملين، ودعاة مخلصين صالحين مصلحين، وحماة لهذا الدين.

وقبل الختام أتوجه بالشكر الجزيل، إلى كل من ساعدني على إخراج هذا البحث، وأخص بالذكر الأستاذ الفاضل السيد محمد بركاوي، أسال الله جل في عُلاه، أن يثيبهم على ما بذلوه من جهود، وأن يجعل ذلك في ميزان أعمالهم.

والشكر موصول إلى حضرة الأستاذ النبيل، والعالم الجليل، فضيلة الدكتور السيد : عبد السلام الخرشي، الذي تفضل بقراءة هذا البحث، وأبدى ملاحظات مُهِمَّة ، وقد سررت بها غاية السرور، واستفدت منها كثيرا، فله مني الثناء الجميل، والشكر الجزيل، أسال الله العلي القدير أن يتولاه بولايته، ويشمله بعنايته، ويبارك في علمه وحياته.

وختاما أشير إلى أني بذلت الجهد في جمع هذا البحث وترتيبه، ولا أدعي أني من أهل التأليف، ولا من فرسان هذا الميدان، فمن وجد فيه صوابا فذلك بتوفيق من الله، فليخصني بالدعاء، ومن وجد غير ذلك، فليكمل النقص وليصلح الخطأ، وهو مأجور على ذلك بإذن الله تعالى.

وبهذا أختمه، فما كان فيه من صواب، فبمحض فضل الله وكرمه، وما كان فيه من خطأ فمن الشيطان، ومن تقصيري وقلة بضاعتي.

وفي نهايته أتضرع إلى الله العلي القدير: أن يغفر لي ولوالدي ولمشايخي، وأن يجعل ما تعلمته بسببهم مغفرة لذنوبهم وحسنات في موازينهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يختم لي ولهم بالحسنى، و يجمعني بهم في جنات النعيم بفضله ومنه وكرمه، إنه سميع قريب مجيب.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله وجوده تدوم النعم والخيرات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب المعجزات، وعلى آله وأصحابه ذوي التقى والكرامات.

كـتبـه

المفتقر إلى عفو الله ومغفرته الطالب :

عمر المغراوي.

بدار القرآن الكريم ببني ملال.

جمادى الأولى 1427هـ.

موافق يونيو 2006 م.

أهم المراجـــــع

* ترتيب المدارك، وتقريب المسالك، لمعرفة أعلام مذهب مالك، للقاضي عياض.
* سير أعلام النبلاء، للذهبي.
* وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خلكان.
* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصفهاني.
* البداية والنهاية، لابن كثير .
* الطبقات الكبرى، لابن سعد.
* تهذيب الأسماء واللغات، للنووي.
* تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.
* الانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء، لابن عبد البر.
* تهذيب التهذيب،لابن حجر.
* الديباج المذهّب، في معرفة أعيان علماء المذهب، لابن فرحون.
* مناقب الإمام الشافعي، لابن كثير.
* تزيين الممالك، بترجمة الإمام مالك، للسيوطي.
* مقدمة ابن خلدون.
* صفوة الصفوة، لابن الجوزي.

* كشف المُغطّا في فضل الموطا،لابن عساكر.
* الطبقات السنية في تراجم الحنفية، لتقي الدين الغزي.
* شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية، لمحمد مخلوف.
* طبقات الشافعية، للسبكي.
* طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى.
* الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم.
* شذرات الذهب، في أخبار من ذهب، لابن العماد الدمشقي.
* الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، لأحمد الناصري.
* تاريخ التشريع الإسلامي، لمناع القطان.
* الفكر السامي، في تاريخ الفقه الإسلامي، للحجوي.
* ديوان الإمام الشافعي.
* الإمام أبو حنيفة، لأبي زهرة.
* الإمام مالك، لأبي زهرة
* الإمام الشافعي، لأبي زهرة.
* الإمام أحمد، لأبي زهرة.
* مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، لعمر الجيدي.
* رجال الفكر والدعوة في الإسلام، لأبي الحسن الندوي.
* الأئمة الأربعة، لأحمد الشرباصي.
* صلاح الأمة في علو الهمة، لسيد حسين العفاني.
* الأئمة الأربعة، لعبد العزيز الشناوي.

الفهـرس

إهـداء 3
تقريظ لفضيلة الشيخ عبد الله بن المدني 5
تقريظ لفضيلة الأستاذ محمد بن إدريس 7
مقدمة 11
أهمية دراسة حياة أئمة الإسلام 12
وجوب التعريف بالأئمة 13
وجوب توقيرهم 14
ظاهرة التجاسر على العلماء 16
محبة العلماء من الدين 20
نصحهم وإرشادهم للأمة 22
حاجة الأمة إلى العلماء 25
فضل علماء الآخرة 26
موت العلماء مصيبة 27
تنكر بعض المسلمين لعلمائهم 31
حرصهم على جمع كلمة الأمة 32
علماء الدنيا (علماء السوء) 34
زَلَّةُ الْعَالِم 35
انتشار المذاهب الأربعة 41
ترجمة الإمام الأعظم أبي حنيفة 44
نسبه 44
مولده ونشأته 45

قصة زواج أبيه بأمه 45
طلبه للعلم 48
سبب اشتغاله بالفقه 49
شيوخه 50
تلاميذه 51
انتشار مذهبه وأتباعه 53
ثناء الأئمة عليه 53
كتاب الفقه الأكبر 56
أصول مذهبه 57
من لطائف حيل أبي حنيفة 60
عبادته وورعه 61
تواضعه 63
قوة ذكائه وسرعة إجابته 64
ظهور نبوغه في صغره 70
محنته 70
وفاة الإمام أبي حنيفة 72
ترجمة الإمام مالك 73
نسبه 73
مولده ونشأته 73
حرصه على طلب العلم 74
شيوخه 76
تلاميذه 78
الإمام مالك إمام الأئمة 81
انتشار مذهبه وأتباعه 81
ظهور مذهب الإمام مالك بالمغرب 83
ثناء العلماء عليه 85

مجلسه وهيبته 89
لا يفتى ومالك في المدينة 93
عنايته بكتاب الله 93
حرصه على السنة 93
شدة كراهيته للبدعة 96
من كلامه رحمه الله 98
تحريه الصواب في الْفَتْوَى 100
قول لا أدري 101
كتاب الموطأ 103
سبب وضع الموطأ 104
اعتناء العلماء بالموطا 106
رواة الموطا 109
عدد أحاديث الموطأ 110
المدونة 111
أصول مذهبه 111
محنته 114
وفاة الإمام مالك 116
ترجمة الإمام الشافعي 118
نسبه 118
مولده ونشأته 118
طلبه للعلم 119
سرعة حفظه 119
شيوخه 121
تلاميذه 121
انتشار مذهبه وأتباعه 122
ثناء الأئمة عليه 123

علمه بالفراسة 126
من كلامه وحكمه 128
من شعره رحمه الله 132
كتاب الرسالة 135
كتاب الأم 137
أصول مذهبه 137
محنته 137
وفاة الإمام الشافعي 138
ترجمة الإمام أحمد 140
نسبه 140
مولده ونشأته 140
حرصه على طلب العلم 141
شيوخه 141
تلاميذه 142
انتشار مذهبه وأتباعه 142
ثناء الأئمة عليه 143
حب الإمام أحمد دليل على التمسك بالسنة 145
أصول مذهبه 145
كتاب المسند 146
عدد أحاديث المسند 148
زهده 148
ورعه 150
ما رئي له من منامات 152
محنته 152
عدد الذين ثبتوا في محنة خلق القرآن 163
عاقبة أحمد ابن أبي دؤاد 163

وفاة الإمام أحمد 164
ما رمز به لتاريخ وفاة الأئمة الأربعة وميلادهم 166
نهي الأئمة عن تقليدهم فيما هو مخالف للسنة 168
ذكر ما كان بينهم من احترام 179
وجوب الاعتناء بسير أئمة الإسلام 184
خاتمة 186
أهم المراجع 193
الفهرس 195

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء